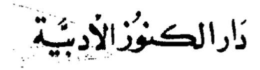

رحلة في قطار العمر
وَليدة عتّو

رحلة

في قطار العمر

رحلـــة في قطار العمر

وليـدة عتو



الطبعة الأولى
١٤١٣هـ-١٩٩٢م



الإهـــداء

إلى أعز وأغلى مخلوقتين على قلبي . .

إلى من هما النور لعيني والدفء لروحي والفرحة لقلبي . .

إلى من هما الشعاع الذي يضيء ظلمة حياتي . .

إلى ابنتيَّ روز وميرفت

أهدي هذا الكتاب

وليدة عتو



المقدمة

«رحلة في قطار العمر»، مجموعة قصصية كُتبت بأسلوب سلس وجميل، وهي مأخوذة من حياتنا اليومية التي يتعرَّض لها كل فرد من هذا المجتمع، وبالأخص المرأة التي هي محور هذه القصص ومغزاها.

«رحلة في قطار العمر»، قصص تحكي معاناة نفسية واجتماعية من خلال سطور عميقة المغزى، تخاطب مشاعر وأحاسيس الإنسان الداخلية.

هذه المجموعة، قد نُشرت في جريدة «الجماهير» في حلب، عام ١٩٩١، وقد لاقت نجاحاً كبيراً، والآن أجمعها ضمن كتاب ليكون بين أيدي القراء الأعزاء، الذين لم يتسنَّ لهم الاطلاع على هذه المجموعة التي تخاطب كل نفس، وتحكي حكاية كل مقهور، وتصرخ بصوت المظلومين.



رحلة في قطار العمر

الليل قد أتى والظلام يلف الأشيـاء بستاره الشفاف والسكون يتغلغل في النفوس ليزرع فيها الوحشة ويثقلها برطوبة الحياة .

سكنتِ الأشيـاء من حـولها ، زحفـت الـرطـوبـة الى داخلهـا واستقـرّت في الأعماق ، تسلّل الملل والضجـر إلى نفسها المتعبـة ، وراحت تفتش بنظراتها عن الأشيـاء داخل الغرفة السـاكنـة سكون الموت .

تحسست الأشياء ، استلقت فوق سريرها الضجر ، تقلّبت على جنبيها . فهذا السكون الرهيب أثقل فؤادها ومزق أعصابها .

فأطياف أسرتها المشتتة تغشي عينها الفائضة بالدموع .

الانتظار الطويل أتعب نظراتها القلقة وغمرها بالحزن القاتل ، تعبت خطواتها من السير في أرجاء الغرفة .

صرخت محتـويات الغـرفـة ، ضجر الأثـاث من نظـراتها التي تبحث عن أشياء هي عمرها الذي طحنته قسوة الأيام وطوته غبار السنين . فـالأشيـــاء من حـولها انطلقت تشكـو مـن هـذا القلق

والاضطراب اللذين يطوقان الحياة داخل هذا البيت ويخمدان أنفاسه. وفي لحظة ضجر لم تشعر بنفسها إلا وهي تحزم حقيبتها وتخرج من هذا البيت المثلج الذي ماتت فيه الحياة.

خرجت مسرعة لا تلوي على شيء وكأنها تفر من مدينة الأشباح، استقلت القطار قاصدة مكاناً تتحرك فيه الأشياء والسكون يصرخ والصمت ينطق والليل له ضياء كأنه النهار، لا ترهبها ظلمته ولا تخيفها الأشياء الموحشة. انطلق القطار يسير على مهل وكأنه ينتظر شيئاً ما، عجلاته تدور ببطء مثل عجلات عمرها التي مضت بغفوة من الزمن ودون علم منها. وكان القطار يجتاز المحطات والركاب ينزلون ويصعدون وهي تراقب المسافرين والهابطين في هذه المحطات، التي هي أشبه بمحطات عمرها. فقد ازدحم فيه المسافرون، كل واحد ينزل في محطته وهي تسير على جراح قلبها وتطوي آلام نفسها المحزونة. وفي المحطة الأخيرة من رحلة عمرها لم تجد من ركاب قطارها سوى واحد يتأهب للنزول فشيعته بآخر دمعة من مقلتيها. وحين جلست لتنفض الغبار عن ساحة عمرها وتنظف ما لطخته الأيام وتقذف بتعفنات الأشياء وجدت في آخر مقعد حقيبة ذلك المسافر مودعاً فيها حصيلة عمره وكأنه قصد من ذلك أن يوقظ فيها الأشياء التي ماتت. وفي هذه اللحظة وصل القطار الى محطته الأخيرة وأطلق صفارته لينذر الركاب بالوصول فحملت حقيبتها وهبطت مع باقي المسافرين مشيّعة حقيبة ذلك المسافر في قطار عمرها وسارت دون هدف أو جهة معينة، فابتلعها زحام الشوارع وضجة الحياة.

تاهت خطواتها في ظلمة الأيـام وتشتت روحها في عالم ليس لها فيه
مكان وسارت طويلاً دون أن تجد لرحلتها محطة تريح بها خطواتها
التائهة وتلقي بجسدها المتعب من السير.



عـودة المـاضـي

النهار يتأهب للرحيل، والشمس تتـوارى خلف الجبال لتجر وراءها خيوط المساء الزاحف نحو المدينة بخطوات راقصة، معلناً قدوم الليل الساكن في أجفان النهـار، وكأنه حلم في عيون عاشق أتعبه السهـاد. وتتوقف ضجـة الناس، ويخيّم هـدوء نسبي على شوارع المدينة، ويأوي كلٌّ إلى بيته ليرتاح من عناء يومه المتعب.

في تلك اللحظـات الحائرة بين انتهـاء النهـــار وقـدوم الليل، قبعت سهير في زاويـة بيتهـا تعـانق وحـدتها، وتسبح في بحـور أفكـارها، تستعـرض صـور الماضي البعيد، وتتـذكّـر حكايـات طفولتها وأحـلام شبابها التي طوتها الأيام، فتراكمـت فوق طياتها غبار السنين.

راحت سهير تنقب بين أكوام الـذكريـات، وتستعرض شريط الماضي، فتراءت لها من بعيد صورة ابن عمها، ذاك الحبيب الذي شيّـدت معه قصـور حب شامخة حين ارتبطـا بربـاط الخطوبـة، وعدوا بـأحلامهما حتى سبقا سـاعات الـزمن، وكيف تحطم ذاك الصرح العالي عندما اختلف أهلهما وفسخوا الخطوبة.

وعنـدمـا وصلت إلى هـذا المشهـد، اهتـز كيـانها، وارتعشت الأشياء في داخلها، وراحت ترفرف كعصفور جريح، رمته بندقية قناص غدَّار. ثم راحت تحاكي نفسها قائلة:

لماذا تتراقص أمامي تلك اللـوحة التي التهمتها نيران السنين، وحوَّلتهـا إلى رماد تـذروه الريـاح في صحراء الحيـاة؟!.. هل هو شقائي الذي أعيشه؟ أم حنيني إلى تلك اللوحة التي كانت تضيء حياتي؟

وعادت تسرح في تلك اللوحة، وتتخيَّل نفسها لو كانت زوجة لابن عمهـا، كيف ستكـون سعادتها؟! ثم تصحـو لترى نفسهـا كيف تعيش في جحيم مع هـذا الوحش الذي أجبرهـا أهلها على الزواج منه؟

كانت المقارنة صعبة، فهي تقارن بين الجنة والجحيم، فتنطلق التنهـدات التي تمزق صدرهـا، وتنفرج شفتـاها لتطلق لعنـة على أهلها، القتلة المجرمين، الذين انتزعوا سعادتها، وحطَّموا قلبها، ورموها إلى قاع الجحيم. وتعود لتمعن في صفحات الماضي الغارق في دماء قلبها، فتنساب الـدموع من عينيها دون بكاء، وتصرخ: آه... آه من هذا القـدر الظالم، ومن الأهل والنـاس ومن كل يد اشتركت في قتلي، ثم رفعت رأسها إلى أعلى وقالت:

رباه ماذا أفعل بشقائي؟ رباه إلى من أشتكي؟ رباه ماذا فعلت في دنياي كي أعاقب هكذا؟ رباه هل تسمعني؟!.

وبينما هي تلفظ هذه العبـارات، وإذا بالبـاب يطرق طـرقات

خفيفـة، فلـم تعره اهتمامـاً، غير أن الطرقـات على الباب عـادت تضربـه مرة أخـرى، فتأففت لهذا الازعاج الـذي انتشلها من بئـر أفكارهـا، فرفعـت يدها إلى خـدها، ومسحـت قطرات الـدموع المنسابة، واتكأت على يديها، ثم نهضت متثاقلة وهي تقول:

ـ من هذا القادم؟ كم هو مزعج؟!

وســـارت إلى البـــاب بخطىً ثقيلـــة، تترنَّح يمينـــاً وشمالاً كالسكـارى، وبحركـة غير إرادية فتحت البـاب، وإذا بها تقف مشدوهة لا تدري ماذا تقول، هل تصرخ؟.. هل تضحك؟.. فقد تبعثرت حروف الكلمات على شفتيها، وراحت في شبه غيبوبة صامتـة، ترميه بنظـرات حيرة، فيها ألف سؤال وسـؤال، وأشياء كثيرة في داخلها اشتبكت في صراع عنيف، فهي لم تعـد تدري إن كانت فرحة أم حزينة لرؤيتـه! لقد كان مجيئه مفاجأة غير منتظرة، وقفت جامدة لا تبدي حراكاً سوى النظرات التائهة، الحيرى.

وأخيراً نفضت عنهـا غبـار الـدهشـة والـذهـول، وهمست: فـؤاد... فـؤاد!.. غير معقول... وعـادت تنظـر إليـه بنفس النظرات.

كان يلفها بنظـرات مفرحة، تحمل حكـايات الماضي، وشوق الحاضر وأمل المستقبل، وابتســـامـــة اللقـــاء تحتضن وجهـــه، والكلمات تتراقص بين شفتيه، تحاول الانطلاق فلا تعرف على أية أرض تستقر. فجمودهـا هذا حدَّ من اندفـاعه، وحطَّم الكلمات على شفتيه، ولكنه لا بد وأن يقول شيئاً، طالما جاء وطرق الباب.

أخرج صوته المدكوك وقال لها:

ـ مساء الخير. . .

أيقظتها هذه الكلمة من سباتها، فمدَّت له يداً باردة كصفحة صقيع لتصافحه وهي تقول:

ـ تفضل يا فؤاد. .

شدَّ فؤاد على يدها بحرارة وقال:

ـ كيف حالك يا ابنة عمي الغالية؟

سحبت يدها بلطف وهي تقول:

ـ إنني بخير.

وسارت أمامه إلى غرفة الجلوس، وفي ركن من الغرفة جلسا متقابلين، وخيَّم عليهما الصمت البارد. كان كل منهما يحاول أن يلملم نفسه الحائرة، ويجمع أفكاره المبعثرة. دقائق قليلة استطاعت سهير جمع أفكارها التائهة، وتطلق صوتها الناعم، فتمزق غلاف الصمت حين سألته:

ـ فؤاد. . . قل لي كيف تذكرتنا بعد هذه السنين الطويلة؟!.

عشرون عاماً مضت دون أن نراك خلالها!. .

تطلع إليها بوجه سكنته كل تلك السنين، وطافت على شفتيه ابتسامة حسرة وقال لها بلهجة عتاب:

ـ وهل نسيتك يوماً يا سهير حتى أتذكرك اليوم؟!.

هل خُيِّل إليك يـومـاً بأن قلبي استطـاع أن يخفق إلا بحبك؟ وروحي تنفست إلا بهواك؟ وفكري سرح إلا بذكراك؟ ولساني نطق إلا باسمك؟

أطـرقت بـرأسهـا خجلة، وغـرقت في صمتهـا المعتـاد، فهي والصمت توأمان. عمـرها أمضته كله صامتـة، تصارع أحزانها، وتداري دموعها، وتعيش آلامها دون شكوى.

احتارت ماذا تقول؟ وكيف تجيب على هذا الفيض المتدفق من الشوق والعواطف؟! . . فهي لم تعد تحمل له سوى حب القرابة، وذكريات جميلة تناستها مع مرارة الأيام.

ماذا تقـول له؟ وقـد أتى ليحيي الماضي البعيـد، الذي طـوته السنـون بين صفحاتها المتعفنـة. إنـه يحملهـا بين حنايـا روحـه، ويعـود بها ربع قـرن إلى الـوراء، كـانت تعـاني من تلك النيران المتأججـة في داخلها. إنه يـريد أن يعيـد الماضي بكل ما فيـه من ذكـرى مؤلمة، وليـالٍ مظلمة، لم تجد خـلالها شمعة تضيء عتمـة لياليها التي امتصت رحيق شبابها، ولكن مـاذا يفيد صمتها طالما لا بد وأن تتكلم؟ . . . أن تقول شيئاً، أي شيء. . .

رفعت رأسها وتطلعت إليه بعينين تائهتين، ونظرات متعبة، لا تعرف الراحة وقالت:

فؤاد ما لنا والماضي؟ حدثني عن الحاضر. . ما هي أخبارك؟ وأين أنت من هذه الدنيا؟

رسم على شفتيه ابتسامة باهتة، لا لون لها وقال:

ـ لا أستطيــع أن أحدِّثكِ عــن الحاضـر وأنسى الماضي، لأن كليهما مرتبط بالآخر، فالحاضر ابن الماضي.

أجابته بشيء من الارتباك، متجاهلة فهم ما يقول:

ـ فؤاد. . . ماذا تريد أن تقول؟ وإلى أين تريد الوصول؟ . .

استـوى في جلسته، ولفَّهـا بنظـرة تفيض حبـاً وحنـاناً وقـال بصوت هادىء عذب:

ـ سهير. . . لن أقول لك إنني أحبك، وأتولَّه في هواكِ، لأنني وجدت فيكِ كل صفات المرأة التي تعشق. لا لن أقول هذا، لأنه ليس وليد اليـوم أو الأمس، بل هو حب ولد مع ولادتنا، وتـرعرع مع طفـولتنـا، وقـد عشنـاه شبـابـاً، غير أن أهلنـا صبّـوا علينـا أحقـادهم الظـالمة، وأبعـدونـا عن بعضنـا من أجل خـلافـاتهم الشخصيـة، وداسـوا حبنا، وحطَّمـوا قلبينـا تحت أقـدامهم دون شفقة أو رحمة.

والآن، جئت إليك حاملاً بين جنـاحيّ حب الماضي، وشوق الحاضر، وأمل المستقبل، لأرميها بين يديك. جئت أستعيد معكِ الماضي لأبني الحاضر، وأعيش المستقبل الذي لم أستطع تحقيقه فيما مضى.

واسترسل في كلامه شـارحاً حبه وعواطفه الجيـاشة التي رافقته طوال هذه السنين، وكيف يتعذَّب في حبها، ويحترق بنار فراقها.

كانت تستمع إليـه بذهول واندهاش، فهي لم تتخيَّل بأنـه ما

زال يحمل لها كل هذا الحب وهـذه العواطف المتدفقـة . لم تصدق أنها ما زالـت تعيش في قلب ابن عمها ، هـذا العاشق الـذي كان يعشق كل شيء فيها ، صحيح كانت تحبه منذ الطفولة ، وخطبت لـه شهوراً ، كـانت أسعـد أيام حيـاتها ، إلا أنها منـذ أن تم فسخ الخطوبة وأجبرها أهلها على الزواج من رجل آخر، مضت تائهة في طريقها الوعـر، واغتيلت عواطفها ، ونسيت كيف يكون الحب . كـانت تستمع إليـه بصمـت عميق ، تلفهـا الحيرة ، وينتـابها الارتبـاك ، فـلا تعرف مـاذا تقـول؟ أو كيف تتصرف؟ ! . . تحاول الكـلام ، تـريد تـوضيح مشـاعـرهـا فلم تفلح لأنـه لم يفسح لها المجال . كـان يتكلم باندفـاع شديد وكأنـه يخاف الزمن أن يسرق منه لحظاته ويمضي بها كما مضى بقطار عمره بعيداً .

كانت تتخبَّط في أفكارها ، وتصارع مشاعرها المتشابكة ، فهي لا تـدري إن كانـت سعيدة بهذا الكـلام أم حـزينـة ! . فرحـة أم غـاضبـة؟ لكن كل أنثى تطـرب لكلمات الحب حتى لـو كـانت رافضـة لـه . لقـد اختلطت عليهـا الأشيـاء ، كـانت في صمتهـا وصراعها مع نفسهـا ، إنه حب قديم ، لمَ جـاء يذكِّرهـا به ويفتح جـروحاً كـادت أن تندمل . هكـذا كانت تحاكي نفسهـا ، وأخيراً حسمت الأمـر ونفضت عنهـا ثقل الحيرة والارتبـاك ، وأبعـدت الأفكار المشوشة ، وأجابته بصوت هادىء رقيق :

ــ فؤاد . . . إن هـذا الأمر قـد مضى عليـه زمن طويل ، لقـد مضى كل منا في طريقه ، ونسج له القدر خيوط حياته بأصابع من

حراب، فلم يعد من المفيد أن ننبش الماضي من عباب الزمن، لم يعد مفيداً أن نوقظ ما فات من العمر.

أجابها بصوت يقطر حباً:

ـ لِمَ يا زهرتي الجميلة؟

أجابته والحيرة ما زالت تأكلها:

ـ أتسأل لماذا يا فؤاد؟! . إن شمس حياتنا لوَّحت على المغيب، ولم يعد باستطاعتنا إيقاف عجلة الزمن والامساك بها، لم تعد تليق بي هذه الألقاب الندية لتناديني بها، لأنني لم أعد زهرة، ولم يبقَ الجمال كما كان في السابق.

قال بصوته المعتاد:

ـ من قال لك هذا؟ أنتِ ما زلت زهرة، وما زال جمالك كما كان، بل ازداد نضارة.

طافت على وجهها مسحة من الخجل، وأطرقت لا تدري ماذا تقول أو كيف تحد من هذا الاندفاع؟ فمزَّق صمتها الذي دائماً تهرب إليه حين سألها:

ـ لم تصمتين مطرقة؟ هل ما قلته أغضبك؟

نظرت إليه نظرات حائرة، وأجابته بصوت غلبته رعشة الخجل:

ـ لا. . . لم تغضبني ولكنك أخجلتني فأنا كبرت على هذا

الكلام الذي لم أسمعه مذ كنت مخطوبة لك، فالآن تقوله لي بعد أن غدا أولادنا شباباً.

قال: وماذا يعني؟..

أجابته بسرعة: تقول ماذا يعني؟ يعني أننا أصبحنا ملكاً لأولادنا.

أجابها بانفعال: لا ليست حياتنا ملكاً لأولادنا، فهم يكفيهم ما قدَّمناه لهم من تضحيات خلال عشرين عاماً، نسينا أنفسنا وعشنا لهم وبهم، والآن من حقنا أن نعيش حياتنا، فأنا لا أسمح لهم أن يكونوا عقبة في طريق سعادتنا، وأن يكونوا سبباً في ضياع ما أضاعه أهلنا من قبل.

نظرت إليه بدهشة واستغراب وقالت:

ـ ماذا تعني بكلامك هذا؟ قل ماذا تريد؟ فأنا لا أفهمك!.

ـ أريد أن أعيد الماضي، وأن نتزوج...

جحظت عيناها من وقع المفاجأة، ورمته بنظرات حادة، وأجابته بلهجة قاسية بعض الشيء:

ـ فؤاد، ماذا تقول؟ هل تعني ما تقول؟!. أم أنك جننت! فأنا ما زلت على ذمة زوجي، واعيش معه في غرفة واحدة.

أجابها بصوت هادىء:

ـ إنني أعلم ذلك، ولكني علمت بأنك على خلاف معه وأنكما على وشك الطلاق.

خمد صوتها مرة أخرى، وأجابته بشيء من الارتباك :

ــ هذا صحيــح ، ولكن هذا لا يعطيك الحق بـأن تطرح هـذا الموضوع ، لأنني أنا نفسي لا أستطيع تحديد موعد الطلاق ، فهناك أمور كثيرة مـرتبطة بطـلاقنا ، ثم أنـا لا أسمح لنفسي بالخوض في هذه الأمور، طالما أني على ذمته .

قال لها بشيء من التوسل :

ــ سهير، أرجــوك لا تكـوني قـاسيــة عليَّ وعلى نفسك ، ولا تضيِّعي أيامنا القادمة كما ضاعت أيامنا الماضية .

تنهَّدت بضيق ويأس وقالت :

ـ فـؤاد إنك تكلمني وكأنني حرة ، ليس لي زوج ولا أولاد ، ثم حتى وإن كنت بـلا زوج لن أخـوض التجـربة مـرة أخـرى ، ألا يكفي ما لاقيته من عذاب طوال حياتي؟ وما ذقت من مرارة! . .

قاطعها قـائلاً : سهير لا تصفعيني بهذه القساوة ، ولا تحكمي على الأشياء من خـلال تجربة فاشلـة لكِ ، ولا تغلقي الأبواب في وجه الأيـام قبل قدومها . فأنـا أعلم أنك على ذمة زوجك ، وأنك شربت المرّ وما زلت ترتشفينه . لذا جئت أحطم هذا الكأس المليء بـالمرارة ، وأضع فوق شفتيك كأسـاً مليئاً بـالشهد ، ثم أنـا لم أقل إنني سـوف أتزوجك الآن ، وإنما جئت أقـول لك : إنني مـا زلت على حبي لك ، وإنني على الانتظار إلى آخر العمر.

رمته بنظرة حزينة وقالت :

ـ لقد تأخرت كثيراً يا ابن عمي! . . فالأشياء لا تبقى على حالها، وكل شيء في الحياة يتغيَّر ويتبدَّل، وأوشكت أن تقول: إن العواطف قد جفَّ ينبوعها. إلا أنها لزمت الصمت فسألها:

ـ ماذا تعني يا سهير بهذه الجملة؟

قالت: لا شيء. . . أقول إلى أن يأتي ذلك اليوم، لا يدري أحد ما سيحدث.

كانت لهجتها ساخرة من الدنيا والقدر ومن نفسها، ومن هذا العاشق الذي جاء بعد ربع قرن وبعد أن ذهب شبابها، وذبل جمالها، يذكِّرها بالماضي وبالحب وبأشياء ماتت في داخلها، كما تموت الزهرة داخل إناء مملوء بالماء السام.

بعد انتهاء هذا الحوار بينهما، نهض فؤاد وغادر بيتها على أمل أن يعود في ظرف أفضل، ولكن جملتها الأخيرة شوَّشت تفكيره: «ماذا تعني سهير؟ هل ترفضه؟! أم أنها سوف تقبل به بعد طلاقها».

فهو ينتظر ذلك اليوم بفارغ الصبر، هكذا مضى بتساؤلاته.

أما هي فقد كانت تفكر كيف ستجد حلاً لمتاعبها؟

ومضت الأيام والشهور كما سابقاتها، لا تحمل بين طياتها سوى المرارة والألم إلى أن جاء يوم الخلاص، لا تدري إن كان خلاصاً لعذابها أم بداية له؟

وبعد طلاقها راحت ترتب لحياتها القادمة، وإذا بابن عمها

يطرق الباب من جـديد طالباً منها الزواج، شارحـاً حبه، فقالت له:

ـ فـؤاد أنا لم أطلّق كي أتـزوج . . . بل طلّقت كي أتخلص من عذابي وأنهي هـذه المأساة، فما عـانيته كـان قاسيـاً، ولا أرغب في إعـادة المأساة مـرة أخرى، أتـدري لماذا؟ لأنني خرجت من هـذه الرحلـة الطويلة بقلب متحجـر، وعواطف جامـدة، فينبوع قلبي نضب، ولم تعد لديَّ القـدرة على الحب والعطاء للزوج أو لإسعاد من يرتبط بي، فأنا كالصحراء القاحلة لا ينبت فيها زرع . . . إنني كسنوات الجفاف لا رزق فيهـا . . . هذا أنا يا فـؤاد، فماذا يفيدك الزواج بي؟ ومـاذا ستأخذ مني؟ دعني لمصيري المجهـول، وأيامي التي لا أعرف لها لـوناً. هذا من نـاحية، ومن ناحيةٍ أخـرى، هو عمري وأولادي فأنـا لم يبقَ من عمري سـوى الخريف فلا يستحق أن أركض خلفـه، فمعظم عمري اقتطفتـه يد عـابثة ورمتـه تحت الأقدام.

لفهـا بنظـرات المحبـة الخاشعـة، وأطـال النظـر، ثم قـال لها بصوت تخنقه الغصة:

ـ هذا آخر كلام عندك يا سهير؟

همست بصوت ضعيف: أجل! . .

فماجت الدمـوع في عينيه، وأدار وجهـه كي لا ترى الـدموع، وهي على وشك السقـوط، ونهض مـن مقعـده وسـار بخطـوات بطيئة نحـو الباب، وعندمـا وصل الباب، التفت إليهـا وقال لها بلهجة حزينة وصوت تغلّب عليه رعشة البكاء:

ـ سهير إني أحبك وأخاف عليكِ، ليس لأنك حبيبة فقط، بل ابنة عمي أيضاً، أخاف عليك من هذا المركب السائر في عرض البحر دون هدف، أخاف عليك من أمواج البحر المتعالية أن تحطم مركبك وتبتلعك حيتانه، أخاف عليك يا سهير من نفسك الحاقدة على الحياة، وروحك التائهة السائرة نحو المجهول، والتي لا تدري في أي محطة ستقف.

لكن سهير ظلت صامتة تنظر إليه نظرات تائهة، وودَّعته بصمتها المعتاد ونفسها الحزينة: إذهب يا فؤاد ودعني لضياعي أحترق بناري وحدي، فأنا وهي توأمان فلا تخف عليَّ يا ابن عمي، فأنا لم يعد لديَّ ما أخاف عليه. دعني يا فؤاد للأيام تكمل لعبتها معي، فأنا كرتها المفضلة. دعني يا رفيق طفولتي أواجه شقائي كما واجهته من قبل، فلا أنت ولا أي إنسان يستطيع انتشالي من هذه النار، فأنا خلقت كي أكون وقوداً لها، فأنا الآن لم يبقَ مني سوى أطلال الماضي تحمل رماده الرياح وتطير بها لتنثرها فوق أكوام القمامة.

هكذا كانت تودعه في داخلها، وبهذه العبارات كان فؤاد قد وصل إلى الباب الخارجي، فأمسك بقبضته وفتحه، وقبل أن يخرج رماها بنظرة رثاء ووداع، وخرج وهو محمَّل بالهموم والحزن ينعي أحلامه وأمانيه التي تحطمت خلف هذا الباب الذي قذف به إلى الجحيم.



أوراق مطلّقة

كانت الحياة بالنسبة لها رحلة جميلة، والمستقبل حلماً وردياً يدغدغ خيالها، والأشياء من حولها تعزف على أوتار الأماني لحناً شجياً، يخاطب مشاعرها، ويسكن داخل أعماقها، والأمل أنشودة تترنّم بها فتطرب لها وتعدو لتحتضن الحياة بكل ما فيها من زوىً مفرحة عشقت الحياة من خلالها فعاشتها ببراءتها المفرطة وحسها الطفولي الذي سبقه عمرها، وتعداه شبابها، طولها الفارع، وتقاطيعها المتناسقة، وجمالها الرائع . . .

كان عالمها نظيفاً ممتلئاً بالبراءة والعفوية . . .

لذا عاشت في صومعتها العالمية تتأبط صولجانها، ويزيِّن جبهتها تاج من النقاء. خمسة عشر عاماً مضت من عمرها دون أن ترى قذارات النفوس البشرية، أو تطالها سيوف ألسنتهم القاتلة . . .

استيقظت يوماً على تعفنات الأرصفة تزحف نحوها لتلطخ بياض ثيابها الناصع، فكان لها القدر بالمرصاد ليقذف بها إلى

أعماق المجهول وتضيع في سراديبه العميقة المظلمة، وفي قاعه السحيق تضيع كل الأحلام وتنتهي كل الأماني.

كان ذلك بعدما امتص رحيقها ذاك الزوج الأزعر وتركها وردة ذابلة تشكو غدر قاطفها حتى قبعت في قوقعتها مجرد أوراق ملونة تتكدس بين نفايات المجتمع. هكذا راحت الألسن تلاحقها والعيون تراقبها، وكل شيء يصرخ فيها:

أنت مطلَّقة!... مطلَّقة... مطلَّقة...

صحت من غفوتها لتجد نفسها تتنقل في غرفتها مثقلة بالخطى، تغزو الحيرة أحداقها والقلق يعصف بأجفانها فحرمها لذة النوم.. طرق سمعها صوت أمها زخماً لتحمل لها خبراً كالمعتاد قائلة:

- ناهد... ناهد... تعالي يا ابنتي...

اقتربت ناهد كشعاع جميل أتعبه شقى الظلام وغلبه قدوم المساء الحزين:

- نعم يا أمي.

قالت لها أمها وقد اختلطت على ملامح وجهها علامات الحزن والفرح: لقد جاءت مني وقالت لي إنها تريد أن تخطبك لقريبها ماهر الذي رأيته عندها. ستأتي مع ماهر وأهله لرؤيتك هذا المساء... قالت ذلك وقد اختلطت الدمعة بالابتسامة، أضاءت الدنيا في وجه ناهد وأوقدت أمام عينيها آلاف الشموع وأنار طريقها المظلم ألف نجم وكوكب....

أطرقت رأسها برهة وامتدت يدها إلى شفتيها المرتجفتين تداعبهما . . . وعيناها قد ارتحلتا إلى عالم الخيال .

زمن قصير مضى وتسدل ناهد يديها وتستدير متثاقلة الخطى إلى غرفتها دون أن تلفظ أية كلمة . . .

بطيئة عقارب الساعة في نظر ناهد وكأن عجلة الأيام قد توقفت عن المسير! . . .

أدخلت يديها في بعضهما . . . وتتسارع أنفاسها . في المساء سيكون يوم الميعاد هل ستلقى حتفها؟ أم سيحنو القدر عليها لتبدأ حياة جديدة؟ . . .

أسئلة كثيرة تطرح نفسها وتهاجم أفكارها . . . وإجابات متعددة تنهال من مشاعرها . . . ما أطول هذا اليوم؟! . . . يا للفرحة . . . ها هي الشمس تميل نحو الغروب . ها هو المساء يسدل أستاره ليحجب الرؤيا ويتساوى الناس في أشكالهم ويصبحوا أشباحاً تحت جنح الظلام . . .

طرقات خفيفة مهذَّبة على الباب تزعزع أفكار ناهد ، وضجيج يتعالى يدلُّ صمت الأسرة المنتظرة . . . لقد حضر الجميع . . . حضرت منى وحضر قريبها! . . .

انقطعت الأصوات . . . وخيَّم الصمت طويلاً . لكن قلب ناهد يزداد خفقاناً ليلتقط كل كلمة تقال . . . فهنا مصيرها . . . وهنا حياتها التي أصبحت معلَّقة على رؤوس الشفاه . . .

جلست ناهد في ركن من البيت تجول في بصرها وجوه الجميع . . . تختلس النظر في العيون وهي على أحر من الجمر لسماع كلمة أو همسة تخط لها مسيرة حياتها وتحتم مصيرها . . .

دقات قلبها تزداد متسارعة وصوت أنفاسها يتعالى وكأنها في قفص الإتهام . . . لم يطل بها الوقت هكذا لأن صوت أمها قد اخترق سمعها بعبارات تقليدية :

ـ ناهد . . . أحضري القهوة للضيوف يا عزيزتي .

وامتثلت ناهد لطلب أمها فغادرت مكانها بجسمها وعينيها لكن سمعها ظل ينتظر سماع الكلمة أو الهمسة ، وجاءت ناهد تحمل القهوة ، ودخلت والخجل يداعب خديها المتورّدين ويسدل أهداب جفنيها فتحني بكل رقة وعذوبة وتقدم القهوة للضيوف . . .

وجلست كما تقتضي العادات وتوجهت الأنظار إليها لتتفحصها وكأنها قطعة أثاث يريدون التأكد من سلامتها . . . وبعد دقائق خرجت ناهد لتفسح المجال من أجل الحديث بموضوع الزواج ـ هكذا كانت العادة ـ وفور خروجها : أشار الشاب لأمه بأنها أعجبته ، ودار الحديث حول الخطبة فاسترسلت الأم في حديثها وراحت تشرح لهم سبب طلاق ابنتها ، وكيف كانت ضحية زوج أبله أذاقها أصناف العذاب والقهر . . .

فوجئت أم ماهر بأن ناهد مطلّقة ، فمنى لم تخبرها من قبل ، لذا فقد امتقع وجهها ، وجحظت عيناها من شدة الدهشة ،

وراحت تجول بنظـراتها في الـوجوه، ثـم استقر بصرهـا على وجـه قريبتها التي جـاءت بها وعواصف الغضب تزلزل تقـاطيع وجهها حتى بدأت يـداها ترتجفـان وفنجان القهوة يتراقص بين أصـابعها فـرمته على الطـاولة كصـوت الصـاعقة، وراحت تـرمي قريبتهـا بنظرات قاسية تشبه الرصاص. . .

كانت تعـابير الرفض والاحتجاج تنطلقان من عينيهـا كسهام قاتلـة والكلمات قد اختنقت في فمها عندمـا أطبقت فكّيها حتى كـادت أسنـانها تتكسّر، ثم نهضت من فـوق مقعـدهـا بشكل عشـوائي وسريع، وبدأت تتفحص محتـويـات الغرفـة باستهـزاء وسخرية. . .

بهت الجميع من حـولها! . . . نهض ماهر ليسـأل ما بها. . . ونهضت منى مذعورة لتعرف ماذا جرى؟ . . . حاول ماهر الكلام فأسكتتـه بإشـارة من يـدهـا، اقتربت منى منهـا فأبعـدتها عنهـا واتجهت نحو باب الغـرفة لتخرج منه دون أيـة كلمة وداع، تبعها ماهر وتبعته منى بعد أن ألقيا نظرة اعتذار وأسف. وساد الصمت في أرجاء الغرفة وخيّم الظلام.

فكـان الجميع في حالـة ذهول وانـدهاش، لم يصحـوا إلا على صوت الباب وهو يغلق بعنف، أما نـاهد فقد كانت واقفة خلف باب غـرفتها تصيخ السمع على أن يصلها ما يثلج صـدرها، غير أنها لم تسمع كلمة أو صوتاً بعد أن دخلـت أمها بقصة طلاقها إلى نصفها فـأقلقها هـذا السكون الثقيل الـذي يمزّق ظلمـة الحياة،

فتسلَّل الخوف إلى نفسهـا وراحت تسائل نفسهـا قائلـة . . . لماذا هذا الصمت الرهيب الذي ينبىء بوقوع مصيبة .

وبينما هي على هـذه الحال من المخاوف ، وإذا بالبـاب يصفع بعنف ليقع في رأسها كالقنبلة المدمرة .

فوضح الأمر، يا إلهي لقد صدر الحكم بالإعدام : . . . .

لقد رفضوها ، فـوضعت يدها على قلبها وصرخت : آهٍ . . . آه لقد شطرتم قلبي ، ومزَّقتم أحشائي .

ركضت الأم إلى ابنتها ، واحتضنتها والدموع تنساب من عينيها لتغسل كل أحزان ابنتها .

ـ يكفي يا أمي . . .

هكذا قالت ناهد وهي منهارة النفس ، ممزَّقة القلب .

ـ لقد انتهيت فقـد أشعلتم في قلبي النيران ، دعيني أستريح يا أمي . . . دعيني أستريح .

خـرجت الأم مـن الغـرفـة لتحتضن أحـزان ابنتهـا ، وتغسل بدموعها جراح القلب الدامي .

وبقيت نـاهد تـزرع الغـرفة جيئـة وذهـاباً وهي تنظـر إلى المرآة وتقول :

ـ هل رفضـوني لشكلي؟ أم لأنني مطلَّقـة؟ وإذا كـان السبب بأنني مطلَّقـة فهل ذنبي إذا طلّقت؟ وهل المطلَّقـة محكـوم عليهـا

بالموت؟ رباه خذني إليك وأنقذني من عذاب البشر، رباه لمَ كل هذا الظلم، وهذه القسوة التي أعامَل بها؟

وارتمت فوق سريرها لتبلِّل بدموعها غطاء السرير، وتنهش روحها ظلمة الحياة. ولتحدث انفجاراً عنيفاً من كلمة مطلَّقة يدوي في رأسها فيزعزع النور من حولها وينشر الظلام من جديد في حياتها، وبراكين الخوف تقذف حممها لتحرق كل أمل أو صلح في الحياة، فقد لفَّ القدر حبل المشنقة حول عنقها لأنها دخلت قفص الاتهام . . . إنها مطلَّقة. عادت ناهد إلى قاعها السحيق لتستقر كومة عظام في إحدى زواياه ولتتراكم فوقها كل نفايات العالم، ولتغطيها أكوام من التراب!

أما ماهر، عندما خرج مع أمه، وقع بينهما شقاق كبير. فلم يعد معها إلى البيت، وغاب ثلاثة أيام لم يعرف أحد طريقاً له، وعندما عاد استقبلته أمه فاتحة له أحضانها:

ولدي . . . ولدي . . أين كنت؟ وكيف أمضيت هذه الأيام بعيداً عني، لقد أذبت قلبي عليكَ يا ماهر.

رماها ماهر بنظرات لوم وعتاب وقال لها:

ـــ لماذا تصرفت هكذا يا أمي؟ ولماذا فعلت ذلك؟ لماذا أردتم تحطيم هذه الإنسانة؟

حدجته بنظرة قاسية وقالت له بلهجة حادة وحازمة:

ـ ماهر أنا لن أوافق على زواجك من امرأة مطلَّقة هل فهمت؟

ألم يبقَ في المدينة فتيات كي أزوِّجك من مطلَّقة؟

ـ لا يا أمي. هكذا قالها ماهر بنفس حزينة.

ـ لا تكوني قاسية إلى هذه الدرجة، فأنا لم أعتد منك القسوة.

هل الطلاق شيء معيب؟ لقد حلَّله الله سبحانه وتعالى، ثم ما ذنبها إذا كان سوء الحظ قد رافقها وطُلِّقت، هل يعني هذا موتها؟

أجابته باللهجة نفسها:

ـ أنا لا يهمني إن كان ذنبها أو ذنب غيرها، المهم أنني لا أزوِّج إبني من مطلقة، وأدع الناس يهزأون مني ويقولون إن أم ماهر قد زوَّجت ابنها من مطلَّقة.

قال لها:

ـ إفرضي أن إحدى بناتكِ قد طُلِّقت، فكيف يكون حالكِ وأنتِ تسمعين نفس الرأي من أم شاب متقدِّم لخطبتها؟

حدجته بنظرة قاتلة وكأنها تقول إن ابنتها ليست ككل البنات وقالت:

ـ كل ما قلته لن يغيِّر من الأمر شيئاً، ولن أتراجع عن قراري.

كان رفضها شديداً، وكان انزعاج ماهر أشد ليس لأنه يدافع عن وعد قطعه لها أو لأنه على ارتباط عاطفي بها، فهو لم يراها إلا مرة واحدة عند منى، وكانت نظرة عابرة، وإنما جاء دفاعه عن مبدأ هو مقتنع به.

قالت له الأم:

ـ لماذا أنت مصرّ على ناهـد؟ ولم تختر أختها الصغـرى، فهي جميلة أيضاً.

أجابها ماهر:

ـ ولكن نـاهد هي التي أعجبتني، وهي التي اختـارها قلبي، فكيف أكون ذاهباً لخطبة ناهد ثم أتركها وأخطب أختها؟

احتد النقاش بين ماهر ووالدته، وتحوَّل إلى مشاجرة، هدَّد أمه إذا بقيت على مـوقفها سـوف يترك البلـد ويهاجر، نهض بعصبيـة وخـرج من البيت صـافعـاً البـاب خلفـه. غضبت الأم غضبـاً شديـداً، وخرجت بعـده إلى بيت ناهـد، وعندمـا أصبحت أمام الباب، أمسكت (بسقَّـاطة) الباب وراحت تطـرق طرقات قـوية متتالية مزَّقت رأس ناهد.

سـارت نـاهد إلى البـاب كشمس شـاحبـة أضناهـا الـدوران الطويـل، فتحت الباب وإذا بها أمـام والدة ماهـر، ابتسمت لها وقالت مرحِّبة:

ـ أهلاً بك يا خالة تفضلي.

لم يصـدر عن ذلك الوجـه المتقلص شيء ينبىء بأنها أتت كي تصلح ما حدث، بل انفجرت في وجه ناهد قائلة:

ـ إسمعي جيداً أيتها الـوقحة، أنا لن أوافق على زواج إبني من مطلَّقة مهما كلَّفني الأمر، هل فهمت؟

اخترقت هذه الكلمـة أحشاء ناهـد كسهم ناري وشطـر قلبها

فأسنـدت نفسها إلى الجدار وصـاحت آه. . . آه من هذه القسـوة القاتلة، لقـد جنيتِ عليَّ أيتها الظالمة. سمع الأهل صـوت ناهد الذي مـزّقه بكـاؤها، فركض الجميع ليجـدوا ناهـد وهي تتهاوى على الأرض. فاحتضنتها أمها وهي تناديها بقلب مجروح.

ـ ناهد. . . ناهد. . . حبيبتي ماذا أصابكِ؟

أجابتها ناهد بصوت واه:

ـ هكـذا أراد المجتمع يا أمي، دعيني أمـوت، دعيني أموت، لقد لوَّحت شمس حياتي بـالمغيب، وأنتِ يا دنيا لن أودِّعك اليوم لأنني قد ودَّعتك بالأمس.

ومن بين ضجيج الأهل ولوعتهم والأصـوات الباكية، انسلت تلك الأفعى دون كلمة اعتـذار، فحملوا ناهد إلى سريـرها لتلفظ أنفاسها الأخيرة، تـاركة هذا العالم الظالم، وتفارق قـدرها المشؤوم إلى العالم الآخر.



امرأة نسيها الزمن

السنون تمضي من عمرها سريعة تطوي المسافات، وتلتهم الأيام دون مضغ، والزمن يتسلل كلص جشع يسرق كل شيء جميل في حياتها، والشيب يزحف كشبح آتٍ من أعماق الظلام ليصفعها بأصابع كالحراب على مفرقيها وليترك بصماته القاسية تتشابك مع خصلات شعرها الذهبي فيقتل كل حلم جميل قادم يداعب خيالها الناعم، وينزع أية فكرة حلوة تطوف في رأسها.

كل الأشياء من حولها تتبدل، والحياة متقلبة تزحف نحو المجهول.

وهي واقفة في ظلمة الحياة تتلمس طريقها وجبال العالم وقممها جاثمة فوق صدرها. تعبت، تهاوت، سقطت أرضاً، زحفت بوهن تلثم قدمي الليل، فقد غاصتا في أحشائها. توسلت، صرخت، استجدته بعد أن جفّ حلقها، وخارت قواها، فارتمت فاقدة الوعي لا تدري كم مضى عليها من الزمن وهي في غيبوبتها، ولا تشعر بالأيام المتلاحقة أمامها.

حتى سنيُّ عمرها لم تدرِ كم مضى منها وكم بقي!!

فرحلة الموت كانت طويلة، وإحساسها بالحياة لم تشعر به إلا منذ ذلك اليوم الذي التلقاها فيه عابر سبيل.

راح ينظر إليها بدهشة واستغراب متسائلاً:

ـ كيف يدفن إله الجمال هذا؟ كيف تتراكم فوقه طحالب الحياة؟

وبينما هو كذلك يتأملها ويهمس في أذنها كلمات رقيقة، بدأت تدب الحياة في عروقها، وراحت تفتح أجفانها بتثاقل، وتجيل النظر حولها.

وتلاقت الأنظار، ودخلا في حوار طويل كطول السنين.

استخرج مكامن حاضرها، وتوغل في ثنايا ماضيها. اجتاز كل مسافات أيامها الطويلة. كانت النظرات عميقة تروي ألف حكاية وحكاية، والكلمات رقيقة تنساب مع أنغامه لتزرع في روحها الحياة.

وامتدت يداه لتنهض بهذا الجسد المتناثر مع حبات التراب، ينفض عنها غبار الحياة، ويمسح بأنامله تعفنات الزمن التي حطّت بها، ويظهر هذا الجمال الذي كان ما زال معبداً لناظريه.

وبعد عناء شديد جلست وبدأت تحاول جمع شتات أفكارها.

لملمت أشياءها المتناثرة، بينما راح هو يعزف على أوتار قلبها، ويداعب نبضاته المتلاحقة ويلامس الأشياء التي تحتويها تلك النبضات.

وفي لحظات حالمة تلاقت الروحان بصمت طويل، وانطلقت في رحلة بعيدة. قال لها وهو ينظر إليها:

ـ أبعدي الخوف عنكِ، انفضي غبار السنين عن كاهلكِ، وسيري معي وأنتِ مرتاحة النفس، مطمئنة القلب، فسوف أجعل روحي غلافاً لروحكِ التائهة، وسوف أحتضن قلبك المتعب المتخبط كأمواج البحر عندما تعصف بها الرياح.

فضمته نظراتها الطويلة التي تحمل كل آلام السنين، وحرمان الأيام، وصقيع الليالي الباردة في حياتها. ثم أجابته بلهجة مرة كمرارة عمرها:

ـ ولكن شمس عمري قد غربت، ورحلتي في الحياة قد شارفت على الانتهاء.

فرماها بنظرة لوم وقال:

ـ من أخبركِ بهذا؟

فرفعت أصابع يدها إلى رأسها وغرست أصابعها في مفرق شعرها وقالت له:

ـ وهذا الشعر الذي غزاه الشيب؟!

قهقه باستهزاء وكأنه يسخر من شيء لا يعترف به قلب عاشق وقال:

ـ ومتى كان الشيب مقياساً أساسياً في حياة الإنسان؟ أو نهاية لقصة حب شريف؟ ثم لماذا لا تنظري إلى جمالك الذي ما زال يبهر العين، ويسعد القلب رغم الشيب الذي تتحدثين عنه؟

تنهدت بعمق وقالت:

ـ أي جمال هذا والعمر لم يبقَ منه سوى القليل؟

لقد طحنته رحى الحياة، وابتلعته طيات السنين دون أن أشعر به كيف مضى.

لفها بنظرة حنان وقال لها:

ـ أرجوك أن تساعديني كي أنهض بك... إلى الحياة الهانئة، إلى العمر القادم، فلا تشديني معك إلى اليأس والحرمان. فالحياة تفتح أحضانها لتضمنا فلا تصديها.

فصمتت ولم تجب. فقال:

ـ لِمَ هذا الصمت؟ قرري وأسمعيني قراركِ، فأنا أبني أحلامي على شفتيك.

فطوّقته بنظرتها الدامعة وقالت:

ـ سوف أشيد هذه الأحلام، وأجعلها صرحاً عالياً، وأجعلكَ نوراً لعيني، ونغمة لأذني وجناحاً لروحي، وأزرع حبي في دنياكَ الواسعة لأنني اختنقت في عالم الضيق.

فاعتلت نظراتها مركباً وأبحرت في بحور عالمه، أبحرت بعيداً... بعيداً ليعانقا الحياة القادمة.

كانت لحظات بحث فيها كل منهما عن ذاته في حياة الآخر، فوجدا نفسيهما في دنيا جديدة، كل الأشياء فيها مختلفة، فتركا نفسيهما لعاطفة الحب تلعب بالقلوب المتعطشة وقد دبت فيها

الحياة من جـديد، وسارا بأحـلامهما العطرة حتى إذا أراد استرداد نفسـه منها لم يستطع، وكـذلك هي عنـدما أرادت العـودة لم تجد لنفسها مكاناً في ماضيها المثقل بالهموم، فقد وُلدت في عالمه الذي أبحرت فيـه، فكانت الأحـلام تتلاقى بسرعـة، والأرواح تمتزج في حوار طويل، والنظرات تتعانق في رحلة بعيدة.

المشاعـر تحلّق في سمائها فتحتضن النجوم، وتـرتفع في حقول السماء الواسعة، وتسير مع نسمات الصبـاح المشرق لتطوف العالم وتحتضن زهور الحدائق، وتتغلغل بين شذاها العبق.

كـانت كل الأنهار تصب في عيـونهما البـاحثـة عن المجهـول، فبدت اللحظات عمراً، والكلمات كتـاباً يحكي قصص العشاق، والنظـرات بحـراً، والأهـداب شراعـاً تطـوف بـه العـالم. تلك اللحظـات كـانت هالـة من الصمت تلف الـروحين وفيضـاً من الكلام الـذي تطلقه العيـون، وعندمـا عادا مـن رحلتهما البعيدة سألته:

ـــ مـاذا حـدث؟ أين كنـا؟ بـل مـا الـذي أصـابني؟ وكيف استطعت احيائي بعد موتي؟

قال لها:

ـ لا تسألي عما حـدث، وكيف حدث، بل قولي تعـالَ لنغرف المزيد من السعادة التي حُرمنا منها طويلاً. اقتربي مني أكثر وقولي تعالَ نحتوي الدنيا بكل ما فيها، ونحلّق عالياً.

لا تسألي عن شيء مضى واندرس، بل فكّري في الأشياء الآتية بعالمنا الجديد، اسبحي مع الحلم القادم وسيري دون تردد الى المحطات التي تنتظرنا منذ أمد بعيد، فالأشياء تسير بخطى واسعة وأخاف أن تدوسنا بأقدامها.

قالت له:

ـ ولكنني خائفة.. خائفة أن يكون الزمن قد سبقنا، فنسينا، فلا يعترف بنا.

قال لها:

ـ لا تخافي... أنظري إلى عينيّ سترين، كل الأشياء تذكرنا.

فصوّبت إليه نظرها وارتمت على صدره وهي تقول:

ـ يجب أن نسرع الخطى لنسبق الزمن قبل أن يسبقنا.



مصرع أم

كان الطقس بارداً، والأمطار تهطل بغزارة، فالفصل فصل الشتاء. في هذا الفصل لا تخرج قمر من البيت إلا نادراً، فهي تكرس كل وقتها لتدريس أطفالها، وحثهم على المذاكرة، فأولادها هم قطاف عمرها، وزهور بستانها المقبل الذي فرشت ترابه من حطام جسمها، وزرعت رياحينه من نبضات قلبها، وروته من دموع عينيها، وقفت في ذلك اليوم الماطر أمام النافذة تنظر إلى الشارع، تراقب الأمطار وهي تهطل، والناس يتراكضون إلى بيوتهم، فمنهم من يحمل مظلة، ومنهم من يخفي رأسه بين كتفيه مسرع الخطى، وعندما تزداد حبات المطر بالهطول، ولا يدرك البيت، كان يلتجيء إلى تحت الشرفات خوفاً من التبلل بالماء.

كان منظر الشارع الضيق أو الحارة الشعبية التي سكنتها منذ زواجها قد أيقظت في نفسها أشياء كثيرة، ففي هذه الحارة دفنت أحلامها مع دفن جسدها في منزل الشاري، وفي هذا البيت أنجبت أطفالها، وولدت أحلام جديدة وآمال واسعة. كانت

تتأمل الشارع وهي سابحة مع أفكـارها المشتتة، تطوف عالماً يعج بالتناقضات، تغوص بأعماق الأشياء كلها، تجد ما فقدته في غفوة من عمرها.

أيقظهـا من شرودها صـوت ابنهـا الباكي، استـدارت بشكل لولبي وسريع، ماذا حدث؟ ولمَ هذا الصراخ؟ أجابها ابنها بصوته المحجـر: لقـد ضربني مـازن وحطم العـابي، صرخت بمازن ولمَ ضربت أخـاك؟ وحطمت لـه أشيـاءه؟ صمت مـازن ولم يجب، تقدمت نحـوه وأمسكت بأذنه وراحـت تضغط عليها وهي تـؤنبه على فعلته، نظرت إلى الغرفة فـوجدتها تعج بالفوضى، وأشياؤهم مبعثـرة هنا وهنـاك، فـالغـرفة صغيرة والأثـاث بسيط والأولاد لا يدعون شيئـاً مكانه فهـم كثيرو الحركة، فانتحت جانبـاً من الغرفة بعد أن أصلحـت بين الأخوة، وأعادت تـرتيب الأشيـاء، فطوال شهور الشتاء لا تفارق حصيرتها الملاصقة للمدفأة، تطالع الكتب والروايات، وتـذاكر للأولاد، وتكتب أحيانـاً بعض مذكراتها، أو بعض الخواطر، فهي مـولعة بكل ما يلوذ بـالأدب. استلقت فوق حصيرتها، وألقت رأسهـا فـوق الوسـادة وراحت تسبح في بحـور أحلامها، فهي كثيراً ما تحلم وتفكر في مستقبل أولادها، فرأت في عين خيالها أولادها وقد أصبح كل منهم بمكانة اجتماعية مرموقة، منهم من أصبح طبيبـاً مشهـوراً، والآخـر رجل سيـاسـة عظيماً، ومنهم المخرج والكـاتب والمحاميـة الناجحة التي تـدافع عن كل مظلوم، غير أنها لا تلبث أن تصحو من حلمها حتى تجد كل من حولها ساكنـاً. فالأولاد منهم من نام بجانبهـا ومنهم من خرج إلى

الحارة ليكمل لعبه مع أولاد الجيران، فتسرع لإدخالهم إلى المنزل، فهي تخاف أن يكتسبوا صفة سيئة من أولاد الحارة، هكذا كانت تقول لهم: التسكع في الشوارع لا يكسب الطفل سوى السوء والتشرد، وكان الأولاد يستمعون إليها بعدم اقتناع، فهم يستمتعون بالخروج إلى الحارة. مضت سنون طويلة، تصارع فيها الظروف السيئة والقدر القاسي الذي أبى أن يدعها تعيش بسلام، فكل شيء حولها مقيت وشديد الوطأة عليها، ابتداء بزوجها وانتهاء بأهلها.

كبر الأولاد قليلاً وكبرت معهم متطلبات المعيشة، فلم تجد مخرجاً من ضيقها المادي سوى العمل الذي منعها زوجها من ممارسته سنين، كانت لا تهدأ وهي تطلب منه الموافقة وكان يرفض بشدة، وأخيراً لم تجد مبرراً من أن تجبره قسراً على الموافقة، فقد وجدت عملاً والتحقت به ثم قالت له فوافق على ذلك، وراحت تقدم لأولادها كل ما تستطيع، فهي تحلم وتبني لهم قصوراً شامخة في خيالها، كان حلماً رائعاً جميلاً وصرحاً شامخاً ذاك الذي بنته طوال سنين خلت. صحت ذات يوم على صوت كالصاعقة، صوت هز الدنيا، حطم الخيال، زعزع الأرض، كان هذا الصوت هو صوت سقوط صرحها العالي، سقط ذاك الصرح وتناثرت شظاياه، وأصاب قلبها فمزقه دون رحمة أو رفق، صفعتها الدنيا بكل قساوتها وآلامها، رمتها مدمرة، صهرتها كما يصهر الحديد. نظرت إلى الأولاد والدموع تترقرق بين أجفانها وصرخت بهم ماذا فعلتم بي؟ غير أنها أخرجت الصرخة ضعيفة، ممزقة، متلاشية

كأنها أنّة محتضر يلفظ أنفاسه الأخيرة، فكان فشلهم في الدراسة الواحد تلو الآخر قد مزقها وحوّلها إلى أشلاء، أما فشلهم في حياتهم العملية وضياعهم فقد أجهز على الباقي من رمادها، فكان كل شيء فيها يموت، لم تعد قادرة على التفكير حتى بما حدث وبما وصل إليه هؤلاء الأولاد العاقون، لم تكن ليخيل لها لحظة أن هؤلاء الأولاد الذين وهبت لهم عمرها، وأشعلت من روحها شمعة لتضيء أمامهم الطريق سوف يغدون بهذه القساوة، ويعيشون بهذا الضياع والتشرد، ويردّون لها هذا العطاء المتدفق بالجحود المنكر، كانت صرخاتها ساكنة وآلامها مستكينة في جسدها.

جاءتها صديقتها ناديا تخفف عنها، ماذا أصابك يا قمر؟ لمَ هذا الضعف وهذا التخاذل؟ هل أنت من النوع الذي تهزه عاصفة أو تقتلعه زوبعة؟ ماذا أصابك وأنت المرأة التي لا توجد امرأة أخرى مثلها؟ فمن قوة نفسك يخال إليّ أنك أنت والجبال في ارتفاع واحد ومن عظمة شخصيتك تذوب كل الارتفاعات الأرضية أمامك، لم أرك قط في هذا الضعف والانهزام، لم أتعود منك الهزيمة، فأنت القمر الذي يضيء على الأرض، فهل يسقط القمر يوماً ولا يضيء بنوره على البشر؟ رمقتها قمر بنظرة تحمل الضعف والتخدر، كيف تريديني أن أكون بعد أن تحطم صرحي وماتت أحلامي وخابت أمانيّ مع ضياع عمري؟ كيف تريديني أن أكون بعد أن تلقيت طعنة الأمومة من الذين وهبتهم كل نبضة من قلبي وكل مشاعر الحياة التي في روحي؟ لم تفلح ناديا بمواساة

قمر، ولم تستطع النهـوض بها وانتشالها من القـاع السحيق الذي رُميت به وكـانت اليد الرامية هي يد أولادها، لم يتألم عليهـا أحد منهم، كلهم في موقف المتفرج، تركـوها وحدها تقف على أطلال أحلامهـا وأمانيها، ساروا في طـريق الضياع طويـلاً، وهي تعدو بكل قـوتها لتلحق بهم وتمنعهم من نـار الضياع علّهـا تستطيع أن تعـوض مـا ضاع منهم، لكنهـم أسرعوا كثيراً ولم يـدعـوا لها مجالاً للحاق بهم، كانت قـوتهم أكبر من ضعفها، وطريقهم أوسع من أحلامهـا، فضاعت الأماني في ركن مظلم من طـريقهم الواسع، فـوقفت في منتصف الطريق تنظـر، فـلا هي استطاعت اللحـاق بهم، ولا هي استطـاعت العودة، ولم تـدر كم مضى من الـوقت وهي واقفة مكانها، وأخيراً عادوا وهم نصف محروقين، احتضنتهم بقلبها وداوت حـروقهم من رحيق روحها، ونظفت أوسـاخ الجلد المحروق من أمطار عينيها، اختلطت فيهـا المشاعر، فلا ندري إن كانت فرحـة بعودتهم، أم حزينة على مـا أصابهم، فراحت تحاول من جـديد الخروج من قـاع البحـر إلى شاطىء الأمـان، ولكن لم يسيروا معها طـويلاً. وقبل أن تبلـغ الشاطىء وجهـوا لها الطعنة القـاضيـة التي أسكتت القلب النـابض، وشلت اليـد الحنـونـة المعطـاءة، وفاضت تلك الـروح التي صارعت الأمـواج العاتيـة، والجبال الصارخـة، وبحثت عن مرضاها الـذين كانت تداويهم فلم تجد أحداً، فهطلت آخر دمعة وهي تشيع حطام قلبها.



عنـد الغـديـر

في ليالي الصيف المقمرة التي يندفع أبنـاء القرى فيها إلى السهر فـوق الأسـاطيح وكأن عيـون حبيبة تنـادي حبيبهـا نغمـة داخل أجفـانها وتغفو على حلم هـادىء جميل، في إحـدى هذه الليـالي الجميلة وبعد أن عاد أحمد من الغدير الذي يبعد كيلومترين اثنين عن القرية والذي يطلق عليه اسم غدير العشاق لكثرة ما احتضن من عشـاق ومحبين، فهو يسمع الأحـاديث الطويلـة بين الأحبة، ويخفي همســات العشـاق، ويحزن لكل آهــة تصــدر من قلبي حبيبين، فقد سجـل بين طياته آلاف القصـص وملايين الأسرار، هذا الغدير، كان ملتقى أحمد ونبيلة، العاشقان اللذان ولد الحب في قلبيهما منذ أن خطَـوَا أول خطوة على تـراب الأرض، فهما أولاد عم، تربيا في منزل واحـد، وأكلا في طبق جمع العائلتين، وعملا في حقل غرسا أزهاره بيديهما الصغيرتين الناعمتين، وسقيا أشجاره من رحيق روحيهما اللتين تتـدفقـان حبـاً. جلس أحمد في ذلك المساء بجانب عمه وقد عزم على أن يفشي له بسر قلبه ويطلب منه أن ينصف هذا القلب الذي عاش حبه عشرين عاماً دون أن يعلم

به أحد، فهو لم يجرؤ يوماً على البوح بحبه لنبيلة خوفاً على سمعة نبيلة والعائلة، هكذا الحب يحدث في القرى، فالحب شيء معيب. استجمع أحمد شجاعته ولملم أفكاره المبعثرة هنا وهناك ثم قال لعمه: عمي لي معك حديث أرجو أن تسمعني، بل هو طلب أتمنى أن تلبيه لي. أجاب العم: ماذا تريد يا أحمد؟ هل أنت بحاجة إلى نقود؟ وهذا كثيراً ما يحدث، لأن أحمد بعد أن توفي والداه وهو صغير عاش في بيت عمه المختار الذي يعد من وجهاء القرية، قال أحمد: لا، يا عماه أنا لست بحاجة إلى مال فأنا أعمل وأكسب ما يكفيني وأكثر، قال العم: ماذا تريد إذاً؟ خفض أحمد رأسه إلى الأرض وقال هامساً: أريد الزواج، قال له العم: ألا ترى معي أنه ما زال الوقت مبكراً على زواجك؟ قال أحمد بخجل: لا يا عمي. لقد أنهيت الخدمة العسكرية فماذا أنتظر بعد؟ قال العم: حسناً من تريد من بنات القرية كي أرسل زوجة عمك لطلبها لك؟ تخضب وجه أحمد باحمرارٍ وصمت قليلاً ثم قال: أريد نبيلة يا عماه. وهنا كانت الكارثة، فقد غضب العم غضباً شديداً ورفضه رفضاً باتاً وعندما ألح أحمد في طلبه زجره العم بقوة وعيَّره بفقره ويتمه وقال له إن نبيلة يجب أن تتزوج شاباً من أعيان القرية ليس شاباً فقيراً معدماً مثلك. توسل أحمد إليه ورجاه كثيراً، غير أن العمّ ظل مصمماً على رفضه وسد أذنيه عن صوت أحمد المذبوح. نام أحمد تلك الليلة على نار وحمم لا بل هو لم ينم، فالسهاد لازم أجفانه، والأفكار المتضاربة مزقت خلايا رأسه، فكان ينتفض كالطير المذبوح. وفي مساء اليوم التالي

اصطحب معه وجهاء القرية وذهب لعمه يعيدطلب نبيلة . فظل العم على رفضه ولم يلِن وأخبر أحمد بأن شاباً غنياً ومن عائلة كبيرة قد طلب نبيلة وأنه وافق على هذا الطلب . وهنا فقد أحمد اتزانه وقدرته على التحمل فثار في وجه عمه وهدده بأن يشعل القرية كلها ناراً إن زوج نبيلة إلى شاب غيره . فأجابه عمه بنفس الثورة والغضب وطرده من البيت وهدده هو الآخر بالقتل إن عاد ودخل البيت أو قابل نبيلة . خرج أحمد والغيظ يكاد يقتله ، سار طويلاً في شوارع القرية الترابية ، ثم انحرف نحو الحقول هائماً على وجهه تتجاذبه الأفكار المرعبة والخواطر المخيفة ، كان يبحث عن حل لهذه المشكلة ، ماذا يفعل هل يخطف نبيلة ويهرب بها مثل اللصوص؟ أم يقتل والدها ويشفي غليله؟ ولكن هل ترضى نبيلة به بعد أن يقتل والدها؟ وهل ترضى بالهروب معه؟ وحتى لو رضيت نبيلة هل يستطيع هو الإقدام على تلطيخ اسم العائلة بالعار؟ طال به التفكير والسير في الحقول ، مضى النصف الأول من الليل وهو هائم في الحقل الواسع ، لا يكاد يصل إلى حل حتى يقذفه من رأسه ويبحث عن حل آخر ، ولم يدر بنفسه إلا وهو ملقى تحت جذع شجرة ، فنام نوماً متقطعاً تنتابه الأحلام المفزعة والكوابيس الخانقة . وفي الصباح ذهب إلى الغدير ينتظر نبيلة ، وبعد انتظار طويل جاءت نبيلة وعلى وجهها عذاب الدنيا وفي عينيها صراع الموت . امتزجت الدموع وتعانقت القلوب وبدأ أنين الروح قبل أن تلفظ الشفاه شكواها ، كان العذاب شديداً والأوجاع مؤلمة ، تقابلا بصمت بارد ثقيل يشل الحركة . طال

الصمت، وتلألأت الدموع وتشتتت الأفكار، ثم بدت صرخة من أحمد موجعة: هل رأيت ماذا فعل أبوك؟ هل رأيت الخنجر الماضي الذي غرسه في قلبينا؟ أجابته نبيلة بصوت كأنه أنين من قعر بئر: كيف لا أرى وقد غاص ذاك الخنجر الأثيم إلى أعماق قلبي، قال أحمد: ما العمل؟ ما هو الحل؟ قالت نبيلة: لا أدري فأنا لست بقادرة على التفكير، أشعر وكأن عقلي شل. تأملها أحمد للحظات قال بعدها: نبيلة لقد انتظرتك هنا منذ ساعات طويلة لأني أعرف أنك ستأتين بحجة نقل الماء كي آخذ رأيك بالأفكار التي طرقت مخيلتي، فأنا طيلة ليلة أمس أبحث عن حل ولكني لم أستقر على فكرة معينة بعد.

نظرت إليه نظرة إيضاح عما يريد قوله، فتابع كلامه وأخبرها بكل ما دار برأسه من أفكار، وعندما أنهى كلامه أجابته نبيلة بالرفض، فهي لا ترضى لأهلها بالذل والعار ولا تستطيع أن ترى أحمد قاتلاً ولا تريد الموت لأحمد، وإذا كان لا بد من الموت فليكن لها هي. هذا ما قالته لأحمد، وهذه الجملة الأخيرة التي لفظتها نبيلة جعلت أحمد يفكر في هذا الاتجاه ويمعن السير فيه، فقد راقت له هذه الفكرة واستساغها، ولكن كيف يقتل؟ كيف يستطيع قتلها؟ أيقظته نبيلة من شروده عندما قالت له: بمَ تفكر؟ ولمَ كل هذا الصمت؟ قال لها: كنت أفكر في حل ولكنني أبعدته عن رأسي، قالت: ما هو؟ أريد أن أعلم بكل ما تفكر به، قال لها: كنت أفكر لو أننا نموت معاً، فأنا من المستحيل أن أدعك تتزوجين رجلاً غيري، ووالدك مصمم على ذلك، إذاً فالموت

أفضل لنا، أجابته نبيلـة: إن الموت عندي أفضل ألف مرة من أن أتزوج رجلاً غيرك، قال لها: هل تعنين أنك موافقة على الانتحار؟ فهمست ببطء وكأن شيئاً لا يعنيها: نعم. ضمها أحمد بنظرة حمّلها كل ما يحمله قلبه المعذب فقال لها: لا أيتها الغالية، فأنا لا أستطيع أن أراك ميتـة، ليفنَ العـالم كلـه وأنت لا يصيبك أذى، قالـت له بصوت يقطـر مرارة وألماً: ومـا قيمة الحيـاة وأنت لست معي؟ قـال لها: سـوف أبحث عـن حل آخـر ربما أجـد مـا هـو أفضل، وافترقا بعد أن تواعدا على اللقاء هنا عند غدير العشاق.

مضى شهران على هذه الحادثة لم يـدع أحمد طريقة إلا واتبعها مع عمه كي يوافق على زواجه من نبيلـة دون فائدة، عاشت نبيلة هذين الشهريـن في قلق وعذاب، فوالدها ضيّـق عليها الخناق، فهـو لا يسمح لها بـالخروج من البيت إلا نـادراً وبـرفقـة إحـدى صديقاتها، فكانت تستغل نبيلـة هذا الوقت لتجتمع بأحمد، وفي إحدى المرات التي كانت جـالسة فيها مع أحمد عند الغـدير يبثان فيها أشـواقهما ويبحثان عن حل لهذا الموضوع وإذ بوالـدها مقبل عليها وفي يده عصـا وهو يقذف الشتائم لها ولأحمد. نظـرت نبيلة إلى أحمد نظرة سريعـة حمّلتها كل الحب الذي في قلبها وقـالت له: أحمد، لا بـد من الموت، لم يفهم أحمد ما تعني. بلحظـة خاطفـة قفزت إلى فم الغـدير ورمت بنفسهـا. صرخ أحمد صرخة مـدوية اهتزت الأرض من تحتـه وتساقطت أوراق الشجـر وابتعد صـداها ليسمع العالم كله بأن الحب قد مات ولم يبق في الدنيا سوى الشر،

ثم قفز خلفها. وعندما وصل الأب إلى فتحة الغدير كان كل شيء فيه ساكناً.

ذهب الأب إلى القرية ليخبر اخوتها بالأمر، وبعد ذلك خرجت صديقة نبيلة من مخبئها الذي كانت تجلس فيه ريثما تنتهي من مقابلة أحمد وهي تصرخ: آه يا نبيلة، يا حسرتي عليك يا غالية، وأسرعت راكضة إلى القرية تذيع الخبر، ولم تمض نصف ساعة حتى تجمعت القرية كلها أمام الغدير الذي ضم أجمل حبيبين، وجيء برجلين ليخرجا الغريقين فوجداهما متعانقين، يد أحمد بين خصلات شعرها واليد الأخرى ضمها بها إلى صدره وكأنه يخاف عليها حتى بعد موته أن يخطفها منه أحد. أخرجا أحمد أولاً ثم نبيلة وحين ألقياها بجانبه تطايرت خصلات شعرها واستقرت على وجه أحمد، ورأسها باتجاه قلبه وكأنها أبت أن تفارقه قبل أن يكحل عينه بشعرها الأسود، وتطمئن على ذاك القلب الذي فاض بالحب الصادق والمشاعر الجياشة. نظر الأب إلى الجثتين بازدراء وركل أحمد وقال: ابعد هذا الكلب عن هذه الفاسقة. لم يحزن عليها أحد من ذويها ولم تذرف عليها دمعة.

شيعت القرية جثمان الحبيبين بموكب مهيب وقلوب اعتصرت ألماً على شبابهما الناضر.

حزنت القرية كلها وظلت سنين تتندَّر بهذا الحدث الذي اعتصر القلوب وهزّ المشاعر، وأقسم أحد رجال القرية أنه رأى شعاع نور يخرج من قبري الحبيبين.



غـربـة المــال

بعد يوم أمضــاه سامر مع ناديـا حبيبة الروح وحلم المستقبل ، وبعد أن أخبرهـا أنه في هذا اليوم سـوف يخبر أهله برغبته بـالزواج منها ، وهـو يعلم تمام العلم بأن أهله من الفئات المتعـالية المتكبرة والـذين يتقنـون فن الترفع والتبـاهي بعـائلتهم ، فكيف بهم وهم يوافقـون على زواجه من ناديـا الفقيرة المعدمـة والتي تعمل لتؤمن فقط قـوت يومهـا وثمن علاج لـوالدهـا المريض الذي يعـاني من مرض العصب ، وبعض حاجات اخوتها الصغار.

تذكر وهو يسير في الطريق عائداً إلى مختبره السنين الخوالي التي أمضاها مع نـاديا في مشفى خاص وفي غرفـة واحـدة . فمنذ تخرج من كلية الطب بدأ يمارس عمله في ذلـك المشفى الذي تعرف فيه على ناديا .

كان سامر يعيش بسعادة ويبني أحلاماً وردية ، فقد تذكر أول يوم جـاءت فيه ناديـا إلى المشفى وطلبت منه المساعـدة ، لتتعرف على أدوات المختبر، وقـد لبى طلبهـا بكل حماس وانـدفـاع . فلم يبخل عليها بأيـة معلومة يعـرفها ، فـراحا يمضيان اليـوم بالعمل

المتـواصل، فعيناهما تحدقـان بـالمختبر عند كل طلب، ويـداهما تتناقـلان الأنابيب بكل ثقـة وهدوء. ولم يبخـلا على حبهما، فقد بحثا كل تفاصيلـه ومقومات بقائه وذلك منـذ أول يوم التقت فيه النظـرات وتعـــانقت الأرواح واختلطت دقـــات قلبيهما وأصبحـا يعـزفان على وتـر واحد، فيصـدران لحنـاً رائعاً تغـرد على أنغامـه أصوات البلابل الشجية. وصـل إلى المختبر ووضع رأسه بين يديه وأخذ يتذكر كلمات أبويه حين فاتحهما بحبـه لناديا ورغبته بالزواج منها، قـال أبوه: كيف تتجـرأ وتطلب مني أن أتقدم لطلـب فتاة مثل ناديا؟ هل جننت؟!

قال سـامر: ومـا يعيبها؟ إنها أفضل من بنـات كثيرات يغرقن بـالأموال. انفجـر والده في وجهـه، وأمه تحث أبـاه وتبعهما حتى الأخوة، وغـدا كل من في البيت ضده وضـد أفكاره التي ستسيء إلى العائلة. حاول اقناعهم فلم ينجح، ثلاثة أيام وهو على صدام معهم، وكلما سألتـه نـاديـا عن أخبار الخطبـة كـان يخفي عليهـا الحقيقـــة قـائلاً لها: إني لم أفـــاتحهم بعـــد. لكن حين لم يستطع اقناعهم قـال لهم: سأتـزوجهـا شئتم أم أبيتم، فهـددوه بطـرده وحرمـانه من أية مسـاعدات، فسخر منهم ومن تهديـداتهم وقال لهم: سأدع كل شيء لكم في سبيل أن احتفظ بناديـا، ولكن ماذا يقـول لحبيبته وكيف يبرر لها رفـض أهله وهي صـاحبـة المشاعـر الحساسة والروح الأبية، لكن ماذا يفعل؟ وكيف يواجهها؟ وفجأة جاءت نـاديا فـوجدتـه شارد الفكـر، مشتت النظـرات، مكفهر الوجـه، وبعد أن القت عليه تحيـة الصباح سألتـه ما بك؟ لِمَ كل

هذه التعاسة مرسومة على تقاسيم وجهك؟ زفر زفرة طويلة ولم يجب. قالت له بلهفة: سامر، قل ما بك هل حدث شيء مؤلم. قال بصوت كاد أن يكون همساً: وهل يوجد ألم أكثر من أن يحكم على الإنسان بالموت لأنه فقير. أدركت ناديا ماذا يعني بكلامه وحاولت أن تلملم شتات قواها المتناثرة وأن تبعث في أعصابها القوة، لكنها لم تستطع أن تتمالك نفسها فهوت فوق المقعد. قالت: سامر، إني أعرف ما حدث فقد رفض أهلك، أليس كذلك؟ كانت تتكلم وكأن صاعقة قد صدمت رأسها وشلت أطرافها وعقدت لسانها، لكن سامر قال مباشرة: لا تحزني يا حبيبتي، سنتزوج وإني أعدك بذلك ولن أتخلى عن هذا العهد مهما كانت الظروف. إلا أنها وقفت كتائهة في صحراء لا نهاية لها، وبيدين مرتعشتين لا تدري أين ستستقران، تناولت أنابيب التحاليل وبعض الشرائح ووضعتها تحت المجهر وراحت تحدق عبر عدسته، ورغم أن المجهر يكبر آلاف المرات فلم ترَ عبره إلا روحها المشتتة وقلبها الجريح ينزفان فوق هذه الشرائح، وارتسمت لها عشرات الأسئلة، هل رفضني أهل سامر لأني فقيرة، أم لأن والدي مصاب بمرض عصبي، ما أقساك أيتها الحياة، أليس للفقراء قلوب تنبض بالحب والعطاء والتضحية، وكانت تتلوى كأم فقدت صغارها، وكان سامر يراقبها وقلبه يتمزق ألماً عليها، كانت نظراته تحمل العذاب والحب والشفقة على مصيرها المجهول إذا حال القدر دونهما، وأخيراً تكلم بصوت صريح وقلب جريح ولسان متعثر فقال: ناديا، أنا أعلم بماذا تفكرين وأحس بجحيم

عـذابك، أتعلمين لماذا؟ لأن عذابي لا يقل عن عـذابك، وآلامي مثل آلامك، فكلانـا جرح نازف، وكل قطعـة بي تموت بل تذوب كما يذوب الجليد على النار. تأملتـه ناديا بعينين دامعتين وسرحت بعيداً بعيداً، ثم قالت وحشرجة البكاء تغلف صوتها : صحيح أن آلامنا مشتركـة، وعذابنـا واحد، أتعلم لماذا يا سـامر؟ لأن كـلانا طُعِنَ بخنجر أهلـك الذهبي، فأنـا لم يرَ أهلك مني سـوى فقري وأحزاني، وزادوا في ذلك بأنهم سوف يبعدونك عني، اقترب منها وقال : ناديا، بالله عليك لا ترددي هذه الكلمات فأنت تقتلينني، قالت لـه والغصة تخنقها، مـاذا تريـدني أن أقول بعدمـا حطموا قلبي وأشعلوا النار فيه وهدمـوا كل أحلامنا، أمسك بيديها وراح يضغط عليهما وكأنه يخاف أن تهرب منه وقال لها : لا. . . لا أيتها الحبيبة، لا يستطيع أحد أن يبعدني عنك ولا أن يمس هذا القلب الطاهر البريء الذي يحتوي العالم بإشعاعة وجهك، ثم إن القلب لي. . . لي وحـــدي ولن أسمح لأحــد مهما كــان أن يسبب لــه العـذاب، قـالت له : إنهم أهلك يـا سـامـر ولا تنسَ المادة التي يهددونك بها، قال : أنا لا أريد منهم شيئـاً، سوف أشق طريقي بيـدي، واقترب من ناديـا وراح يمعن النظـر في عينيها ثم قـال : ناديا، كم عـاماً مضى على حبنا؟ قالت لـه أربعة أعوام، لكن لِمَ هـذا السؤال؟ ثم تـابع حديثـه قائلاً : هل أنت على استعـداد أن تنتظريني عاماً واحداً أو عامين على أبعـد تقدير؟ رمته بنظرة ثاقبة لتعـرف ماذا يـدور في داخلـه، قـال لها : ناديـا، الحب تضحيـة وعطاء ونحن يجب أن نضحي حتى نصل إلى السعادة .

قالت له ونبرة الحزن تغـزو صوتها: هل تراني توقفت يـوماً عن التضحية، قال لها: ما هكـذا قصدت بل أردت أن أعرف إلى أي مدى تستطيعين أن تسيري معي في هذا الطريق الوعر، قالت له: أنـا معك في أي طـريق تسير وفي أي مكـان تحط الرحـال، قـال حسناً لقـد فكرت بـالسفر إلى أية دولـة عربيـة أستطيع من خلال سفري هذا أن أجني بعض المال لنشتري به منزلاً ولنستعين به على عوائل الأيام، واتجه بنظره إلى الجدار الذي أمامه وقال محدثاً ذاته، آه أيها الجدار إن ثمنك أغلى من ثمن الإنسـان، فـأنت بـوقـوفك صامـداً هكذا تستطيع القضـاء على كل قلوب المحبين الـذين لا يستطيعون الحصول عليك والاجتماع تحت سقفك.

أيقظته ناديا بصوتها المنفعل الباكي، إذاً ستغيب عني، وكيف أستطيع الحيـاة بدونك؟ قـال سامـر: إنهما عامان يـا حبيبتي، لا أكثر ولا أقل أستطيع أن أجمع خلالهما بعض المال ثم أعود حاملاً كل أمانينـا أو ربما بعد أن أجـد عملاً وأستقـر أبعث لك لآخذك لعندي. شردت ناديا بنظراتها الحزينة وقالت: ليست هنا المشكلة يا سامر، لكن المشكلة هي بأحـلامك وأحلام كل الشباب الذين يفكرون بـالهجرة، حتى ولـو كانت إلى بلـد عربي، قـال لها: وما المشكلة؟ قالت لأن الهجرة لا تحل مشاكلنا، بل يجب أن نجد هنا الحل داخل بلـدنا، لأن الفرد الـذي يستطيع تأمين حيـاة سعيدة خارج بلـده، فلا شك بـأنه يستطيع أن يـؤمنها داخل بلـده. فردّ عليها: يا ناديـا لو عملنا هنا مدة طويلـة جداً فثقي تماماً بأننا لا نستطيع شراء جدار واحد، ثم إن موضـوع الهجرة موضوع شائك

وواسع لا نستطيع حلـه نحن أو معالجتـه . أطرقت نـاديا مـوافقة وراحت تبحث معه في موضوع السفر.

سافر سـامر وشعرت ناديـا بعده بالوحـدة والفراغ الكبيرين . فقد كان سامر يملأ كل حياتها ، فلم تكن تشعر لحظة بالضيق أو الضجـر أثناء وجـوده معها ، ولكـن ماذا يسـد الفراغ الآن؟ فـلا يوجد شيء أبـداً سوى رسائل سامـر المتواصلة لتعيش نـاديا معها وبين سطورها أحلى أحـلامها ، وتحلم الليالي الطوال بعـودة سامر إليها . ومضى الزمن ، ومضى منه أربعة أعوام ونادي تسأل نفسها كل عام بل كل لحظة : متى سيأتي سامـر ، لقد وعدني عامين ، يا ترى هل غيرته تلك البـلاد واقتلعت ذاك الحب المتشبث بقلبه كما اقتلعته من أرضه ووطنه ، لا . . . لا لـن أشك ولو للحظة واحدة بأنه لن يعود ، وباتت ليلتها تنتظر.



مقلاع أم أسعد

اليوم عيد والعالم العربي يحتفل والناس فرحون والأطفال مبتهجون، ينطلقون إلى الساحات يعتلون الأراجيح، أصوات الطبلات والأغاني تتعالى والساحة ترسم لوحاتها الملونة بنقوش زاهية شكّلها ثياب الأطفال.

وموجة أخرى من المفجوعين ينطلقون جماعات إلى مدافن أمواتهم يتلون على أرواحهم الفاتحة، والسماء تمطر وباء والأشرار يغتصبون الأراضي المقدسة.

اللوحة الخارجية للعالم تظهر متشابكة الألوان، والأشياء تتقاذف بعضها ببعض لتطلق إشارات تنبىء بحدوث شيء يقلب الموازين وينبعث منه فجر جديد يقذف بعود الثقاب إلى قلب الحياة فيبهر العالم بضيائه. فتلك البقعة من الأرض التي تحتفل بأيامها ولياليها مع مقاليع أم أسعد وتلون ثيابها بفرحة الحجارة وتنصب الدبكات حول زمرة من جنود العدو وتمضي أعيادها في المعتقلات الإسرائيلية فيبدأ عيدها عندما يأوي كل ثائر إلى بيته بعد اتمام مهمته بنجاح.

أما أم أسعد فقد كان عيدهـا بعيداً لم يأت بعد، فهي قابعة في دارها وشريط الأقمشة يحزم أصبع رجلها ويداها تنسجان المقاليع وفكرهـا سابح مع نظـراتها التائهة غير المستقـرة، فهي على انتظار وقلق، وتعـابير وجهها تتقلب بـاستمرار وجسـدها الـذي طحنه ثقل السنين الغابرة يهتز لأي خطوة تعبر أمام بابها وكأن بينها وبين وقع الخطوات ماساً كهربائيـاً، وحواسها كلها منصبة نحو الباب ويـداهـا لا تهدآن. فأطفـال الحي ينتظـرون أم أسعـد لتنهي لهم حـرابهم التي تنبىء العالم بأن هنـاك شعباً يستعيض عن القنـابل بـالحجارة وعن المدافع بـالمقاليع التي تصنعهـا أم أسعد، وابنتهـا التي تحمل رضيعهـا على صـدرهـا تكسر الحجـارة وتمد بها أفـراد الانتفاضة، والنيران مندلعة في الشوارع، والثـوار مندفعون بوجوه غاضبة تكاد تلتهم ألسنة اللهب.

ولكن ما هذا الانقبـاض الذي اعتصر قلب أم أسعد، فهي لم تشعر بمثله منذ أن جاءها خبر استشهاد ابنها جابر.

وفجأة سمعت الباب يطرق بسرعة، فارتعش جسمها وتعالت دقـات قلبهـا، فنهضت بسرعة واتجهت إلى البـاب وحين فتحتـه أطلت من خلفـه صبية وكـأنها الأرض التي تحتوي بين أحضـانها الأجساد المطهرة بـدماء شهدائها، وفي عينيها تحمل دمـوعاً تطهر العـالم وعلى قسمات وجههـا حـزن مميت وفي يـديها وصيـة آلاف الشهداء وحازمة بطنها الذي يحوي راية الثورة بالمقلاع.

نظرت أم أسعد إلى الصبية بهلع وخوف وقالت لها: ماذا بك يا زينب.

صرخت زينب : لقد أصيب أسعد يا خالة .

فوجمت أم أسعد قليلاً وكأن الصدمة أخرستها ثم همست بصوت خفيف : كيف أصيب وأين هو؟

أجابتها زينب بصوتها الباكي : لقد أصيب صباح هذا اليوم بعد أن أحرق سيارة للعدو، وهجم على جنديين واشتبك معهما بالأيدي ، وعندما تخلص منهما، جاءته رصاصة في ظهره وهو الآن عند أحد زملائه ، بينما جنود العدو يبحثون عنه وعن رفاقه الذين اشتركوا معه ولا بد أنهم آتون إلى هنا ، فقد أحرقوا عدة منازل واعتقلوا العديد من النساء والرجال .

تراجعت أم أسعد خطوة إلى الوراء ثم استدارت نحو المكان الذي كانت تنسج به المقاليع ، وأسرعت بحملها وتقدمت من زينب وقذفت بها إليها وقالت لها : خذي هذه المقاليع ووزّعيها على شباب وأطفال الحي وأنا ذاهبة لأرى أسعد .

فحملت زينب المقاليع عدا واحد ظلت قابضة عليه ، وحين حاولت انتزاعه شدت عليه وقالت لها : لا يا زينب ، إن هذا المقلاع لابنك القادم ، لابن أسعد .

ولم تكد زينب تبتعد قليلاً حتى جاءت زمرة من الجنود وطوّقوا الدار، ثم هجم بعضهم إلى الداخل ، فوجدوا أم أسعد تهم بالخروج فصرخ بها أحدهم قائلاً :

ـ أين ولدك أسعد أيتها العجوز.

فقالت : إنه يدافع عن وطنه .

فصرخ الجندي في وجهها قائلاً: ألم يختبىء عندك أحد المخربين أيتها اللعينة؟

أجابته بكبرياء: وهل يختبىء الإنسان في وطنه. فنحن لا نخافكم وليس بأمثالنا من يفر منكم أيها الجبناء، الأرض لنا ولن نتخلى عنها مهما طال بقاؤكم وسيعلم العالم أننا أصحاب حق.

فكانت أم أسعد تقذف الكلمات من شفتيها دون خوف. نظر الجندي إلى القائمة التي تحتوي أسماء الملاحقين وقال لها:

ـ أخبريني أين يختبىء ابنك أسعد فهو يقوم بعمليات تخريب.

فبصقت أم أسعد في وجهه وقالت: بل أنتم المخربون أيها القتلة.

فغضب الجندي ولكزها بعقب البندقية فارتمت أرضاً وطار من يدها المقلاع الصغير، فانحنى الجندي لأخذه، ولكن يد أم أسعد كانت أسرع لالتقاطه وضمته إلى صدرها وهي تصرخ في وجهه: إذا كان جابر قد استشهد، وإذا تبعه أسعد، فابنه قادم وسيسير على الطريق نفسها، وسيحمل هذا المقلاع ليرجمكم به كما يرجم الشيطان. فلن تمس يدك القذرة هذا المقلاع.

فصفعها الجندي بنظرة عدوانية وقال لها: إذاً أنت التي تصنعين المقاليع أيتها العجوز، وابنك هناك يخرب. سوف أقطع يديك كي لا تعودي إلى صنع المقاليع.

وانهال عليها ضرباً بعقب البندقية وانطلق باقي الجنود يضعون العبوات الناسفة، وأم أسعد تصرخ: لن تستطيعوا إيقاف المقاومة ولن تكف الأيدي عن قذفكم حتى نستعيد أرضنا بهذه المقاليع.

وكانت هذه آخر جملة نطقت بها حيث تفجرت العبوات وتناثرت أجزاء الدار. ومن بين حطام الدار، ارتفعت يد أم أسعد وهي ممسكة بمقلاعها الصغير ليبقى مشعل نور يضيء الدرب للأجيال القادمة.



الـوداع الأخيـر

كان يوماً جميلاً مشرقـاً، يوم ولدت سلوى، الطفلة الصغيرة، ذات البشرة البيضـــاء، والعينين الخضراوين، التـي تشبـــه لآلىء جميلة، وشعرهـا الذهبي الذي يفوق الشمـس بهجة وحبوراً حين تشرق فينعكس شعـاعهـا فـوق بـراعم الـزهـور وهي تتمايل بتيـه ودلال.

نشأت سلـوى في تلك القرية الـوادعة التي تجثـم بين أحضان الطبيعة الخلابة، تحيطهـا الحقول والبساتين التي تـزينها الأشجار الباسقة والزهور العطرة.

في ذلك الحقل الـذي تملكه أسرة سلوى، نشأت تلـك الطفلة وترعرعت بين براعم الزهور، وغرسات الأشجار حتى غدت شابة جميلـة، وكبر في قلبهـا حبهـا للحقل والأشجـار، فكـانت تمضي معظم وقتهـا في الحقل تـداعب الأزهـار، وتتأرجح بأغصـان الأشجار، وتنظر إلى الطيور وهي تطير من شجرة لأخرى وتختبىء بين أوراقها فتقف محدقة بها طويلاً وهي تطعم صغارها، وكثيراً ما كانت تقـوم مقام العصفورة الأم فتطعم العصافير الصغـار بيديها

الناعمتين، وعندما يأتي سامي ذلك الحبيب الغالي الذي نشأ معها في حقلهم المجاور لحقل سلوى ينظر إليها مبتسماً وهي غارقة مع الطيور فينحني ويلامس ضفيرتها برفق وحنان، فتلتفت إليه بابتسامة مشرقة تطوف فوق ثغرها الجميل فتلتقي النظرات الطويلة التي تعبر عن كل خلجة من خلجات قلبيهما المفعمين بالحب والحنان، وما يلبثان أن ينهضا عن الأرض حتى ينطلقا يعدوان ويداهما متشابكتان ببعضها وضفائر سلوى تتراقص على كتفيها إلى أطراف الحقل حيث تنتصب السنديانة التي شهدت بداية حبهما وهو ينمو ويكبر، وهناك يتبادلان كلمات الحب والغزل. وفي ذات يوم رأت سلوى شاباً يتجسس عليها، كان ذلك الشاب قد عرض عليها حبه لكنها رفضته، فنقم عليها وراح يراقب تصرفاتها. وعندما رآها مع سامي يعدوان في الحقل حتى بلغا السنديانة، انطلق من فوره إلى القرية يكشف سر حبها لسامي ولقاءها معه ويضيف عليها الأكاذيب، وبدأ أهل القرية يتناقلون الأخبار، والشائعات تكبر حتى وصل الخبر إلى أهلها، فضربت سلوى ضرباً مبرحاً وهددها أهلها بالقتل إن هي قابلته أو ذهبت إلى الحقل، وكان كل فرد من أفراد الأسرة يقترح حلاً لهذه المصيبة، فمنهم من اقترح قتلها وآخر أراد قتل الإثنين معاً، والبعض اقترح الإسراع في تزويجها، وقد لقي الإقتراح الأخير القبول الجماعي. أراد سامي أن يقطع الألسن فأرسل وجهاء القرية لخطبتها، غير أن أهلها رفضوا طلبه ليثبتوا للناس عدم صحة الخبر من جهة ولكي ينتقموا من الحبيبين من جهة أخرى

لأن الحب في عرفهم جريمة يعاقب عليها أشد العقاب، وتزويجها هو العقاب الأمثل. كان رفضهم الخنجر القاتل الذي غمد في صدر الحبيبين. وبعد شهور طلب سامي لأداء خدمة العلم، فبكت سلوى بحرقة حين وصلها الخبر، وتمنت له العودة سالماً. لكن الأقدار أرادت غير ذلك، فلم يمض على ذهابه عدة شهور حتى عاد شهيداً، تاركاً هذه الدنيا الفانية. وعندما أتوا بجثمانه إلى القرية خرج سكان القرية كلهم خلفه يودعونه الوداع الأخير، فهو كان محبوباً من قبل الجميع، لذا لم يبق أحد إلا وخرج خلف جنازته، إلا واحدة تمنت لو كانت جنازتها معه. إنها سلوى، تلك المحبوبة التعيسة، فقد منعها أهلها من الخروج، لم يسمحوا لها أن تودعه الوداع الأخير. وبعد عودة أهل القرية من المقبرة، وفي عتمة الليل تسللت إلى المقبرة وراحت تناجيه: سامي أيها الحبيب الراحل عني وعن هذه الدنيا، لماذا رحلت وحدك وتركتني في غابة الوحوش؟ اعذرني يا حبيبي لأنني لم أستطع وداعك بل لقاءك حين عدت من الغربة، ولكن سوف نلتقي يوماً يا حبيبي ليس في هذا العالم القذر بل هناك في عالم الخلود. لقد منعني أهلي من تشييع جنازتك، هل رأيت ظلماً كهذا؟ سامي أيها النور الذي يشع في أعماقي، ما فائدة حياتي بعدك؟ ولماذا أعيش؟ ولمن أعيش؟ فأنت الحياة وأنت الحبيب.

أمضت ساعات وهي تبكي أمام المقبرة وتحدثه وكأنه أمامها يسمعها ثم عادت إلى البيت. لقد توقفت الحياة الهانئة في أعماقها بعد رحيل حبيبها، فلم تعد تطوف الحقل، لم تعد تتأرجح

بالأغصـان ولم تعد تطعم العصـافير. لقد تـوقفت ضفائرهـا عن الحركة ورجلاهـا عن العدو وفارقت البسمة شفتيهـا وفارق الحنان قلبها .

لم تعد ترى من الحياة إلا جحيمهـا ، حتى الناس الذين كانت تحبهم لم تعد تراهم سوى أشبـاح مخيفة تطاردها أينما ذهبت حتى الأزهـار التي كانت تسكـر من شـذاهـا لم تعد تصل رائحتهـا إلى حواسها .

لقد بـدا كل شيء مختلفاً عن السـابق . أرادت سلوى أن تبقى مع ذكرياتها الحلوة وأن تفي بوعدها لسامي ، لكن زواجها المجبرة عليه من شـاب لا تعرفه حـال دون ذلك . وفي يوم زفـافها ذهبت خلسة إلى قبر الحبيب تعتذر منـه لأنها لم تستطع الوفاء بوعـدها له وبثته آخر كلمات الحب وطلبـت منه انتظارها فسوف تـذهب إليه يوماً .



الخيانة المدمرة

كانت جالسة أمام مكنتها تحبك ثياب الزبائن، رأسها محني إلى الأمام وعيناها تحدقان بإبرة المكنة ويداها قابضتان على قطعة قماش وفكرها يعمل كما تعمل المكنة بالثوب وكأنه في سباق مع مكوك الآلة، كان فكرها يسترجع الماضي، يبحث عن أشياء حدثت في حياتها وكانت تقارن تلك الأحداث التي طوتها السنون الغابرة.

لم تكن تدري لماذا تبحث عن الماضي أو لماذا تنقب الماضي، فربما كانت تقارن ساعات السعادة ولحظات الفرح في حياتها مع أيام وسنوات العذاب فلم تجد من سعادتها ما تضعه بكفة الميزان، بينما الكفة الثانية نائية بثقل وزنها وكأنها واضعة حمل الدنيا في كفة وريشة في الكفة الأخرى، كل هذا وصوت المكنة يدور في رأسها. أحياناً يعلو وأحياناً ينخفض حسب موجة أفكارها المتلاحقة السريعة، فلم تدر كم مضى عليها من الوقت وهي على هذا الحال عندما طرقت عليها امرأة من زبائنها الباب حاملة أقمشتها معها تريد حبكها، وبعد التحية والسلام جلستا وراحتا تتجاذبان أطراف الحديث في أمور شتى، وقبل أن تنهي المرأة حديثها رمت

قنبلتهـا المدمـرة وكأنها لم تأت إلى هنـا إلا من أجل هـذا الشيء، قـالت المرأة وهي تنظر إلى هنـاء بعمق: هل مـا زال زوجك يتردد عليك بعد زواجه؟ رفعت هنـاء رأسها عن المكنة ونظرت إلى المرأة بـدهشـة واستغراب وقـالت: من؟ زوجي أنـا؟ قـالت المرأة نعم زوجك، ألم يكن عندك علم بذلك؟ فأدركت هنـاء نفسها وقالت لها: أجل. . أجل، كيف لا أعرف مثل هذا الحدث؟ ثم ألحقتها بسؤال قائلـة: من أين علمتِ بخبر زواج زوجي؟ أجابتها المرأة: وهل مثل هـذا الموضوع يخفى؟ لقد علمـت من جيران العروس، لقـد كنا نتحـدث عنك فقـالوا إن زوجـك قد تـزوج غيرك، إنك خسـارة به، فهـو لا يستحق ظفرك، فـراحت هناء تحادثهـا وهي تائهة الفكر، شاردة الروح، محطمة الأعصاب، فقد كان كل شيء فيهـا يصرخ ويتألم، غير أنها أخفت كـل هـذا عن المرأة، فهي لا تحب أن تكون ضعيفة، غبيـة أمام أي إنسان، لا تريـد أن تعرف المرأة بأنها زوجة مخدوعة وأن زوجها تزوج وهي لا تدري، وبعد أن خـرجت المرأة ارتمت هناء فـوق سريـرها فـاقـدة القوى، محطمـة الأعصاب، تجول الـدمعة في مقلتيها ولكنها تأبى السقـوط، كان كل شيء فيهـا يـرتجف وكـأنها ورقـة في مهب الـريح، كـانت كالمصعـوقة بين المصدقـة وغير المصدقـة، فجعلت تحدث نفسها قـائلـة: هل صحيح تـزوج؟ أم أن هذه المرأة تكـذب؟ ولكن مـا مصلحتهـا أن تكذب؟ لا إنها لا تكـذب، وتـابعت قائلـة: لماذا تزوج خفية؟ هل يخشى تركي للبيت، وإذا كان يخاف ذلك فلماذا تزوج؟

ولكن عليّ أولاً أن أتأكد من صحة هذا الخبر وبعدها أقرر ماذا أفعل.

فانطلقت تبحث وتتقصى أخباره ولم تمض أيام حتى تأكدت من صدق هذا الخبر. فقد تزوج منذ عام ولم يستطع العيش معها فطلقها، وظن أن الخبر لن يصل إلى هناء، فراحت هناء تحدث نفسها قائلة: لماذا فعلت هذا أيها الجاحد الخائن للعشرة؟ أتحسب أن طلاقك لها سوف يرد كرامتي؟ وهل عودتك لي تطفيء النار التي تحرق قلبي؟ لا إن كل ما حدث يجعل النار تذيب قلبي كما يذوب الحديد تحت مطرقة الحداد، وأقسم لك بكل مقدس عندي لأقتلنك، أقسم لك بكل لحظة عذاب عشتها وكل جرعة مرّ رشفتها لأسقينك مرارة ما رشفت، ثم نهضت بعصبية ودخلت غرفتها تتجمل، فتزينت وكأنها عروس في ليلة زفافها وجلست تنتظر عودته والحقد وحب الانتقام يملآن قلبها. وعندما عاد استقبلته أجمل استقبال ودخلت به غرفة النوم، وهناك كانت ليلة العمر فقد أذاقته الحب ألواناً، أسكرته بجمالها وعطائها وأنوثتها المتدفقة وكأنها حبيبة تعطي حبيبها أجمل ما لديها، فقد دمرته بأنوثتها وعطائها وجعلته كالسكران ولكن دون خمرة.

وفي الصباح استيقظا وكان زوجها يشعر أنه يعيش في حلم جميل لا يريد أن يصحو منه بل كان يعيش بجنة لا يريد الخروج منها. فراح يرتدي ثيابه على مهل، وقبل أن يخرج استوقفته قائلة: انتظر قليلاً أريدك بموضوع. قال لها: ماذا تريدين؟ قالت له: أريد منك تنفيذ أمر، قال لها: ما هو؟ قالت بصوت عميق: أريد

أن تطلقني، نظر إليهـا بدهشة واستغراب وقـال لها : ماذا قلت؟ أجـابته بثبـات : كما سمعت أريد الطـلاق . وهنا شعـر بالخطـر يتهدده وشعر بأنه سوف يطرد من الجنة، شعر بالأرض تموج تحت قدميـه، فقال لها بصوت يرتعـش : هناء : ماذا حدث؟ ومـا هذا الطلب الغـريب؟ فنظرت إليـه نظرة فيهـا كل الألم وقالت : لقـد كـانت حياتي معك غـريبة، أجـابها بصـوته المرتعش : مـا سبب طلبك هذا؟ ألم تكن هذه الليلة من أسعـد أيام حياتنا؟ أنسيت؟ إني لم أصحُ من نشوتها إلا على كلماتك القاتلة .

أجـابته بلهجـة قـاسية : إن مـا حـدث لم يكن وليد اليـوم أو الأمس، وإنما هـو جرح قـديم وعـذاب سنين وقـد حان الـوقت لأصفّي حسـابي معك، أجـابها وكأنـه لم يسمع مـا قـالت : لماذا تريدين طردي من الجنـة إلى النار؟ قالت له والمرارة تعتصر قلبها : أنا لم أزج بك بل أنت الذي سعيت إليها بقدميك، قال لها : ماذا تقصدين؟ قالت له : ألم تتزوج بـرضاك؟ فصعق لدى سماعه هذه الكلمـة وراح يتلعثم بالكـلام ويكـذب هذا الخبر، غير أن هنـاء قطعت عليه طريق الكذب وقـدمت له الإثبات الذي لا يستطيع نكرانه . وهنا طأطأ رأسـه وأجابها بصوت خفيف خجول : هناء، إنها غلطـة قد ارتكبتهـا ولن أكررهـا مـرة أخرى . أجـابته ودمـوع عذابها تتموج في مقلتيها : وهل تريدني أن انتظر حتى تعيدها مرة أخرى أيها الرجل المغـرور، لست أنا من يفعل ذلك، ثم خرجت من البيت تـاركة ذلـك المتغطرس يتخبط بظلمات أفكـاره وحسرة ندمـه . ولم يمض وقت طويل حتى انطرح مـريض الفراش وظل

ذلك المرض يلازمـه حتى قضى عليه، فكان موتـه رحمة له وراحة لنفسه المعذبة.

وبعـد دفنـه ذهبت إلى قبره وراحت تخاطبــه قـائلـة: قتلتني بزواجك وسقيتني مرارة العذاب فأقسمت أن أسقيك مرارة عذابي وأقتلك دون سلاح وقـد فعلت. فمتْ ونم نومـاً أبديـاً، فلم يعد يهمني أمرك وكفاني ما نالك من عذاب الدنيا.

المحتويات

رحلة في قطار العمر مجموعة قصصية تطرح قضايا المرأة ومعاناتها في مجتمع ما زال ينظر اليها بأمواله. رحلة في قطار العمر تطرح موضوع الزواج وطريقته الخاطئة التي ينتج عنها دمار الأسرة وفشل الأبوين في تربية أطفالهم، رحلة في قطار العمر أعمال وجدانية وصراعات نفسية مألمة.